الدكتور
السيد محمد ديب

من روائع الأدب العربي

في العصرين العباسي الثاني والأندلسي

الطبعة الأولى
١٤١١ هـ — ١٩٩٠ م

دار الطباعة المحمدية
٣٠ درب الأتراك بالأزهر ـ القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين « ربنا عليك توكلنا ، وإليك أنبنا وإليك المصير » .

وبعد :

لقد عرضت فى هذا الكتاب لمجموعة من روائع الأدب العربى شعره ونثره ، اخترتها بدقة وشرحتها بعناية ، وحكمت عليها استنادا إلى ذوق أدبى آمل أن يكون موافقا لذوق القراء وميولهم ، كما رأيت أن تكون هذه الروائع مختلفة الألوان متعددة الفنون حتى تكون أقرب إلى التذوق والقبول ، وهى تمثل عصرين مختلفين كل عصر منهما له خصائصه وملامحه .

ولقد اخترت من العصر العباسى الثانى الذى بدأ فى سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة من الهجرة قصيدة لأبى الطيب المتنبى فى مدح كافور الأخشيدى بمصر ، وانتقلت إلى حلب نقدمت رائية أبى فراس المشهورة « أراك عصى الدمع » ثم عشت مع رهين المحبسين من خلال قصيدة له فى رثاء صديقه أبى حمزة التنوخى ، ورجعت إلى القاهرة إبان حكم الأيوبيين فاخترت قصيدة للبهاء زهير فى الحنين إلى مصر ، أما عن النثر فبين يدى القارىء رسالة ديوانية من بيئة فارس لابن العميد رب النثر وأمير البيان فى القرن الرابع الهجرى ، وختمت الاختيار فى هذا العصر بالحديث عن فن المقامات ومثلت لذلك بالمقامة الحرزية لبديع الزمان الهمذانى ،

وقطفت من رياض الأندلس نونية الوزير العاشق ابن زيدون وخطبة أندلسية للسان الدين بن الخطيب واخترت له أيضا موشحة فى الغزل والطبيعة ومدح الغنى بالله .

وختمت الكتاب بملحق عن بردة البوصيرى وهى ليست من العصرين اللذين حددتهما فى العنوان ، ولذا جعلت الحديث عنها ملحقا بآخر الكتاب .

ولقد آثرت فى شرحى للنصوص ، وحكى عليها ، وتقويمى لها أن أستند إلى منهج موضوعى يجمع بين أصالة القدماء وتجديد المحدثين ، فحاولت أن أربط النص بقائله ، وأن أتلمس الوشائج بين الصورة التعبيرية والحالة الشعورية ... فالدراسة الفنية الجادة لنص من النصوص تقضى بوجود علاقة بين الألفاظ والأساليب والموسيقى والجو النفسى ، وهذه الحلقات تؤلف باجتماعها مع الصدق الفنى ما يسمى بالتجربة الشعرية .

ولا أقصد هنا أن أتوسع فى بيان المنهج الذى سرت عليه ، والتزمت به ، وأفضل أن أترك ذلك للقارىء كى يتلمسه بنفسه من غير إملاء وتقديم .

وسوف تعقب هذه الدراسات ــ إن شاء الله تعالى ــ دراسات أخرى متوالية ، ليكتمل منها كل ما اخترناه من روائع الأدب العربى فى عصوره المختلفة .

دكتور/ السيد محمد أحمد ديب

الخميس { ١٣ من ربيع الثانى ١٤٠٣ هـ
٢٧ من يناير ١٩٨٣م

القسم الأول

من روائع الأدب العربي في العصر العباسي الثاني

قصيدة للمتنبي في مدح كافور الأخشيدى

القصيدة التى أعنيها هى البائية المشهورة التى مدح فيها أبو الطيب المتنبى كافورا الأخشيدى ومطلعها :

أغالبُ فيك الشوق والشوق أغلب
وأعجب مِنْ ذا الهجر والوصل أعجبُ

وأبياتها سبعة وأربعون بيتا اخترت منها سبعة وعشرين ، وهى تمثل معظم الأفكار التى تشتمل عليها القصيدة، قال :

١ — وأخلاقُ كافورٍ إذا شئت مدحه
وإن لم أشأ تُملى على وأكتبُ

٢ — إذا ترك الإنسانُ أهلا وراءه
ويمم كافورا فما يتغرب

٣ — فتىً يملأ الأفعالَ رأيا وحكمة
ونادرةً أحيانَ يرضى ويغضب

---

(١) تملى : مضارع أمليت الكتاب ، ومثله أمللته ، لغتان

(٢) أهل الرجل عشيرته وذوو قرباه ، ويمم : قصد ، وتغرب : بمعنى اغترب .

(٣) الفتى : الشاب ، السخى الكريم ، والحكمة : العدل والحكم والعلم ، والنادرة : الأفعال الغريبة التى لا تقع من غيره ، ورواها ابن جنى «وبادرة» أى بديهة ، ورأيا وحكمة ونادرة يعرب كل منها تمييزا ، أحيان : فى رواية أخرى : أيان

٤ — إذا ضرَبتْ فى الحرب بالسيف كفهَ
تبيّنت أن السيف بالكف يضرب

٥ — تزيد عطاياه على اللبث كثرةً
وتلبث أمـواه السحاب فتنضبُ

٦ — أبا المسك هل فى الكأس فضل أناله
فإنى أغنى منذُ حينٍ وتشربُ

٧ — إذا لم تنـطْ بى ضيعةً أو ولاية
فجودُك يكسونى وشغلكَ يسلبُ

٨ — يضاحكُ فى ذا العيـد كلٌ حبيبه
حذَائى وأبكى منْ أحب وأندبُ

٩ — أحِنُ إلى أهـلى وأهوى لقاءهمُ
وأين من المشتاقَ عنقاء مغربُ

---

(٤) كفه : فاعل ضربت

(٥) اللبث : بالفتح والضم المكث ، وعلى اللبث أى مع اللبث : حال من عطاياه ، أمواه جمع ماء وهو جمع قلة ، ومياه . جمع كثرة، نضب الماء نضوبا : ذهب فى الأرض

(٦) أبو المسك : كافور الأخشيدى ، والفضل : المعروف ، والبقية من الشيء

(٧) ناط به كذا : أسنده إليه ، الضيعة : الأرض المغلة ، وتصدق على ما نسميه الآن « العزبة »

(٨) حذائى : أمامى ، أندب ، ندب الميت : بكى عليه وعدد محاسنه

(٩) العنقاء المغرب قيل : العقاب ، وقيل طائر ضخم ليس بالعقاب ، وقيل : كلمة لا أصل لها كالغول ، ومغرب : من أغرب فى البلاد : ذهب وأبعد

١٠ — فإن لم يكن إلا أبو المسك أوْ هُمُ
فإنك أحلى فى فؤادى وأعـــذب
١١ — وكلُّ امرىء يولى الجميل محببٌ
وكل مكان ينبتُ العــزَّ طيبُ

— ٣ —

١٢ — يريدُ بك الحسادُ ما الله دافع
وسمرُ العوالى والحـديدُ المذرَّبُ
١٣ — ودون الذى يبغون ما لو تخلصوا
إلى الموت منه عشتَ والطفلُ أشيب
١٤ — إذا طلبُوا جدواك أعطوا وحكمُوا
وإن طلبوا الفضل الذى فيك خيبُوا
١٥ — ولو جاز أن يحووا عُلاكَ وهبتها
ولـكنْ من الأشياء ما ليس يوهب

---

(١٠) أعذب : أحلى وأطيب .

(١١) يولى الجميل : يصنعه .

(١٢) العوالى : جمع عالية ، وهى أعلى الرمح ، أو رأسه أو النصف الذى يلى السنان ، والحديد المذرب : المحدد ، ومنه لسان ذرب أى حاد يريد السيوف .

(١٣) الأشيب : المبيض الرأس .

(١٤) الجدوى : العطية ، أى جعل لهم الحكم فى ماله ، والفضل : ضد النقص .

(١٥) أن يحووا : أن يجمعوا ويحرزوا ، والعلا : الرفعة والشرف .

١٦ — وأظلم أهلِ الظلم من بات حاسداً
لمن بات في نَعمـــائِهِ يتقلب

١٧ — وأنتَ الذى ربيت ذا الملك مرضعاً
وليس له أمٌ ســـواك ولا أب

١٨ — وكنتَ له ليث العرين لشبله
وما لك إلا الهنـــدوانىَّ مخلبَ

١٩ — لقيت القنا عنه بنفس كريمة
إلى الموت فى الهيجا من العار تهربُ

— ٤ —

٢٠ — سللتَ سيوفاً علمت كل خاطب
على كل عود كيف يدعو ويخطب

٢١ — ويغنيكَ عما ينسبُ الناس أنه
إليك تناهى المكرُماتُ وتنسبُ

---

(١٦) النعماء : ما أنعم به عليك .

(١٨) الليث : الأسد . والعرين مأواه والشبل : ولده والهندوانى : السيف المصنوع من حديد الهند ، والمخلب للسباع وجوارح الطير بمنزلة الظفر للإنسان ، وهو اسم مؤخر لما العاملة عمل ليس ، والهندوانى خبرها المقدم .

(١٩) القنا : الرمح ، الهيجا : الحرب تمد وتقصر .

(٢٠) سل السيف وأسله : أخرجه من غمده ، خاطب : اسم فاعل من خطب ، والعود : المنبر .

(٢١) ينسب : يذكر نسبه ، والناس فاعله ، وتناهى : محذوف إحدى التاءين وأصله تتناهى أى تبلغ نهايتها .

٢٢ — وأيُّ قبيلٍ يَستحقكَ قدرهُ
مَعدُّ بن عدنانَ فداك ويَعرُبُ

٢٣ — وما طربى لما رأيتك بِدعةً
لقد كُنت أرجُو أن أراك فأطرب

٢٤ — وتعذُلنى فيك القوافى وهمتى
كأنى بمدحٍ قبل مدحك مذنب

٢٥ — لكنه طال الطريق ولم أزل
أفتشُ عن هذا الكلام وينهب

٢٦ — فشرقَ حتى ليس للشرق مشرقٌ
وغرَّب حتى ليس للغرب مغربُ

٢٧ — إذا قلتُه لم يمتنع من وصوله
جدار معلىً أو خباءٌ مُطنَّب

---

(٢٢) القبيل : الجماعة تكون من الثلاثة فصاعداً من أقوام شتى أو من أصل واحد ، ومعد بن عدنان : أبو العرب ، ويعرب بن قحطان أبو اليمن .

(٢٣) الطرب : الفرح والحزن وهو من أسماء الأضداد ، والبدعة : الحدث فى الدين بعد أن كمل .

(٢٤) العذل : الملامة ، والهمة : ما هم به من أمر ليفعل .

(٢٦) التشريق : الأخذ فى ناحية المشرق ، والتغريب : الأخذ فى ناحية المغرب .

(٢٧) معلى : مرفوع ، الخباء : ما أقيم على عمودين أو ثلاثة من وبر أو صوف ، مطنب : مشدود الأطناب . والأطناب : مفردها الطنب ، وهو حبل الخباء .

التعريف بالشاعر :

ولد أبو الطيب أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الكندى بالكوفة سنة ثلاث وثلاثمائة من الهجرة فى محلة تسمى « كندة » وكان والده من العامة يشتغل سقاء ، ويسمونه « عيدان السقاء » .

انتقل هذا السقاء المغمور بابنه من الكوفة إلى الشام ، فاستتم العلم لا يكون إلا بالمعيشة مع أهل البوادى ، وكان أبو الطيب قوى الحافظة سريع الفهم حاد الذكاء ، وشهد له معاصروه منذ صغره بالنبوغ فى اللغة ، وفهم النحو ، وحفظ الشعر ، ولما استوى بيانه ، ونضجت شاعريته ترك الشام إلى الكوفة ، وماتت أمه فى صغره ، ثم مات أبوه ، فارتحل إلى بغداد ، وعاد منها إلى الشام مرة ثانية ، واستقر فيها سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة ، ومدح سيف الدولة الحمدانى دون أن يراه ، وأخذ يتنقل فى بادية الشام ، ودعا إلى بيعته قوماً من مريديه ، إذ كان يفكر منذ شبابه المبكر فى أن يكون أميراً أو والياً ، ثم انصرف عن هذه الدعوة ، وارتحل إلى قرية تسمى « نخلة » بالقرب من بعلبك ، وزعم فيها أنه نبى اعتماداً على بلاغة أسلوبه ، وعندما شاع أمره ووصل خبره إلى لؤلؤ والى حمص من قبل الإخشيد خرج إليه هذا الوالى وحبسه ، ثم عفا عنه بعد أن تعهد أبو الطيب برجوعه إلى الإسلام .

حكى أبو الفتح عثمان بن جنى قال : سمعت أبا الطيب يقول : إنما لقبت بالمتنبى لقولى :

أنا ترب الندا ورب القوافى
وسمام العدا وغيظ الحسود

أنا فى أمة تداركها الل
ـه غريب كصالح فى ثمود

وفيها يقول :

ما مقامى بأرض نخـلة إلا
كمقام المسيح بـين اليهود

خرج أبو الطيب من السجن كارها للقب « المتنبى » الذى لصق به ، وأخذ يتنقل بديار الشام إلى أن نزل على « أبى العشائر » والى أنطاكية من قبل آل حمدان ، وهناك التقى بسيف الدولة ، الذى أعجب به وما لبث أن اصطحبه إلى حلب سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة ، ليضمه إلى مجلسه ، وقد ظل المتنبى عنده قرابة تسع سنوات أنشده فيها ما يقرب من أربعين قصيدة وإحـدى وثلاثين مقطوعة وكلها تمجيد فى شجاعته وإشادة بانتصاراته ، ولقد أطلق عليها اسم « السيفيات » .

ولقد ساءت العلاقة بين أبى الطيب وسيف الدولة بسبب الوشايات والدسائس التى دبرها خصوم المتنبى ، فترك حلب ، واتجه إلى دمشق ، ولم يكن الطريق أمامه إلى العراق سهلا أو ممهـدا فسار إلى مصر ، ونزل على كافور الأخشيدى فى ساحته بالفسطاط سنة ست وأربعين وثلاثمائة ، واستهل مدحه بقصيدة يقول مطلعها :

كفى بك داءا أن ترى الموت شافيا
وحسبُ المنايا أن يكن أمانيا

كان المتنبى شاعرا حقا بل كان أفضل وأشهر الشعراء فى عصره ، ولم يرض بهذا فعاش على الطموح الكاذب والأمل البراق فى أن يستعلى ولاية أو إمارة ، ولم يكن كافور صادقا عندما وعده بذلك ، وساءت العلاقة بينهما ، وبعد أربع سنوات قضاها المتنبى فى مصر هرب فى ليلة عيد الأضحى من سنة خمسين وثلاثمائة وترك فى فراشه قصيدة يهجو فيها كافورا .

وصل أبو الطيب إلى الكوفة ، واستقر فيها قرابة عام ثم غادرها إلى بغداد ، وارتحل منها إلى الكوفة التى تركها إلى فارس بعد أن وصلته رسالة من ابن العميد وزير عضد الدولة طالبا منه أن يزوره ليلتقى رب الشعر برب النثر فى هذا العصر، ولقى أبو الطيب عنده كل حفاوة وتكريم ثم رحل إلى عضد الدولة بشيراز ومدحه بقصيدة يقول فى مطلعها :

كلُّ جريح ترجَى سلامتُه
إلا فؤادا دَهتْهُ عيناها

ولم يجد عند عضد الدولة ووزيره كل مايشجعه على العيش معهما والإقامة فى رحابهما فصمم على العودة إلى العراق ، وترك عضد الدولة بعد أن مدحه بالكافية التى هى آخر شعره وفيها يقول :

فلوْ أنى استطعت خفضت صوتى
فلم أبصرْ به حتى أراكا

وفى طريقه إلى بغداد وقبل أن يصل إليها ، وعند موضع يقال له : « دير العاقول » خرج عليه مجموعة من اللصوص بزعامة فاتك بن أبى جهل الكلابى ، فصارعهم المتنبى وكانوا كثرة ، وتكشف الوقعة عن قتله هو وابنه محسّد وبعض غلمانه فى سنة أربع وخمسين وثلاثمائة .

* * *

لقى شعر المتنبى اهتماما كبيرا من القدماء والمحدثين ونال حظه من الدراسة والبحث لضخامة معناه وقوة مبناه ، وتعدد أغراضه كالمدح والحماسة والفخر والوصف والعتاب والرثاء ... ... كما حوى من الفلسفة والحكمة ما جرى على ألسنة الناس مجرى الأمثال كقوله :

وإذا كانت النفوس كبارا

تعبت في مرادها الأجسام

وقوله : ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى

عدوا له ما من صداقته بد

وقوله : إذا أنت أكرمت الكريم ملكته

وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

وقوله : إذا نلت منك الودّ فالمال هين

وكل الذى فوق التراب تراب

إلى غير ذلك مما يحفل به ديوانه المتعدد الأجزاء والشروح والطبعات .

مدائح المتنبي :

كان المدح هو اللون الغالب على شعر أبى الطيب ، وديوانه عامر بالعديد من القصائد والمقطوعات التى مدح بها الملوك والوزراء ، وقصائده فى سيف الدولة أعظم وأفضل وأصدق من قصائده فى كافور الإخشيدى ، فالقصيدة الثامنة والأخيرة التى مدح بها كافورا ليس فيها من مدحه إلا التافه اليسير ، بينما تحدث فيها عن نفسه فى ثمانية عشر بيتا ، وألح فى إنجاز ما وعد به فى عشرة أبيات ، وهى التى يقول فيها :

وفى النفس حاجاتٌ وفيك فطانة

سكوتى بيانٌ عندها وخطابُ

والقصيدة التى نعرض لها إحدى هذه الكافوريات التى مدح فيها كافورا بمصر بعد عام من إقامته فيها .

— ٢ —

قضى المتنبي فى مصر أربع سنوات مدح فيها كافورا بثمانى قصائد ، مدحه فى السنة الأولى بأربع قصائد ، ومدحه فى السنة الثانية بثلاث أخرى ، والقصيدة الثامنة والأخيرة مدحه بها فى السنة الرابعة بينما لم يمدحه فى السنة الثالثة بشىء ،وهذه القصائد كانت أهم ما أنشده أبو الطيب فى مصر وإلا فله غير ذلك عدد قليل من القصائد والمقطوعات إحداها فى وصف الحمى .

والقصيدة التى معنا فى مدح كافور الأخشيدى ، أنشدها أبو الطيب فى شوال سنة أربع وأربعين وثلاثمائة يهنىء فيها ممدوحه بعيد الفطر ، ولقد تعاطى فى مقابلها ستمائة دينار ذهبا .

وليس كل مافى القصيدة خالصا لمدح كافور، بل إن قسما منها يتحدث فيه أبو الطيب عن نفسه وقسما آخر يمتدح فيه كافورا ، والشاعر وهو فى مصر من خلال هذه القصيدة وغيرها تواق لإمارة أو ولاية ، يحرص دوما على أن يذكّر ممدوحه ببغيته فيقول له :

أبا المسك هل فى الكأس فضل أناله
فإنى أغنى منذ حين وتشرب

وينتقل من التعريض إلى التصريح فيقول :

إذا لم تنط بى ضيعة أو ولاية
فجودك يكسونى وشغلك يسلب

فالشاعر صادق مع نفسه يعرف هدفه. ويسعى لتحقيقه بمدح كافور فربما نال على يديه الأمنية التى طال انتظارها .

— ٣ —

الأبيات التى اخترناها من هذه القصيدة سبعة وعشرون بيتا ، وقد اشتملت على الأفكار التالية :

١ — الأبيات من (١ — ٥) فى مدح كافور خاصة، والشاعر يقول: إن أخلاقه من الظهور والنباهة بحيث تنبىء عنه . فهى تملى عليه الفضائل وماعليه إلاأن يثبتها، وهو كريم معطاء يؤنس بعطاياه من يقصده ويتجه إليه ، فمن يتقرب اليه يشعر كأنه بين أهله وذويه ، وهو شاب قوى ذو عقل وحكمة ونوادر غريبة يعجز عنها سواه ، وهذه الصفات تلازمه فى رضاه وغضبه ، وهو شجاع مقدام يضرب بقوة الكف لابجودة السيف، وهو أكرم من السحاب ، لأن عطاياه لاتنضب من كثرتها وموالاتها، أما ماء السحاب فينضب إذا مكث فى الأرض لأنها تمتصه وتبتلعه ، والشمس تبدده وتقضى عليه .

٢ — الأبيات من (٦ — ١١) استجداء من الشاعر يعبر عنه فيقول: إن مديحى يطربك كما يطرب الغناء الشارب، فهل فى الكأس بقية أشربها؟ وإذا لم تقطعنى ضيعة أو تفوض إلى ولاية فان ما تكسونى إياه بجودك وكرمك يسلبه إنشغالك وانصرافك عنى ، وفى العيد يضحك كل الأحبة بينما أنا أبكى أحبابى وأندبهم على البعد ، وهو يستعطفه ويطلب العوض نظير مايلاقيه فى الغربة ، وهو يشتاق إلى أهله مع بعد المسافة بينه وبينهم وهو لا يخشى الغربة لأنه يفضل البقاء مع كافور عن العيش مع أهله ، وقد أحبه لأنه يسدى اليه الجميل والمعروف بمكان تطيب الإقامة فيه.

٣ — جعل الأبيات من (١٢ — ١٩) للحديث عن الحساد وفيهم يقول : إن الحساد يريدون بك المكروه ويتمنون زوال ملكك وفساد أمرك .

ولكن ذلك لن يحدث لأن الله يدفع شرهم عنك ، وأنت تدفعه عن نفسك بالسيوف والرماح ، وسوف يموتون قبل أن يروا فيك ما يبغون ولو قدر لهم أن يعيشوا لشابت أطفالهم من شدة ما يقاسون ثم يقول له: أنت سمح كريم تعطى حسادك من المال بقدر ما يحكمون به لأنفسهم ، لكنهم إذا حاولوا الوصول إلى الفضـــل الذى أتاك الله إياه فإنهم لايدركونه ، لأنه شيء آثرك الله به ، ولو كانت العلا موهوبة لوهبتها لهم لكنها شيء تختص به لنفسك .

ومن الظلم أن يحقد عليك هؤلاء الجاحدون المنكرون لأنهم يتقلبون فى نعمائك ومنهم ولى العهد على بن الإخشيد الذى ربيته بعد وفاة والديه، ثم أنكر هو الآخر نعمتك بعد أن كنت له كالأسد لشبله تحمى ملكه وتحمل عنة الرماح بشجاعة نادرة بحيث كنت تهرب فى الحرب إلى الموت .

٤ — الأبيات (٢٠ — ٢٣) يمتدح فيها كافورا بأوصاف أخرى كالشجاعة وعلو النسب وارتفاع المنزلة ، وعند ذلك يقول : إنه سل سيوفه فأذعن له الأعداء وأخذوا يدعون له على منابرهم رغبة ، وهو فى غنى عن الأنساب التى يذكرها النسابون لغيره ، لأن المكرمات تنتهى إليه ، وهو أكبر وأجل من أن ينتمى إلى جماعة لأنه فوق كل أحد، ولقد كان الشاعر تواقا لرؤية ممدوحه حتى إذا رآه طرب لرؤيته، وليس ذلك بدعا ، لأنه كان يرجو أن يراه فيملأ الدنيا طربا لرؤيته.

٥ — الأبيات (٢٤—٢٧) تتناول مدائح المتنبى قبل كافور، ويتحدث فيها عما نظمه من مدح قبل اتصاله به ، فشعره وهمته يلومانه على أنه لم يقصر مدائحه عليه .

وما قاله من شعر قبله يعد ذنبا ، ولذا اعتذر عن ذلك بيعد الطريق

بينهما ، وأن هذا الشعر الذى قاله فى غيره من الملوك منهوب ومسروق منه أو كأنه كذلك .

ولقد سار شعره حتى بلغ أقصى المشرق ، وغـــرب حتى بلغ أقصى المغرب وعم الأرجاء ووصل إلى أهل المدن وأهل البوادى .

* * *

إن الأفكار فى هذه القصيدة غير مرتبة ، وتفتقد إلى التسلسل الذى يعد الركيزة الأساسية فى الوحدة العضوية التى ينادى بها النقد الحديث .

فالأبيات التى تصف كافورا بالكرم تتخللها أبيات يتحدث فيها أبو الطيب عن نفسه ، وهكذا ، والأفكار ذاتية وليست غيرية ، فالشاعر لاينسى نفسه كعادته فى كل مدائحه ، وأبياته التى يمتدح بها كافورا ليس لأنه جدير بما فيها من أوصاف ، بل لأنه يدفع ثمنا كبيرا لها ، والأفكار الجزئية التى تحملها أبيات هذه القصيدة لها حظها من الدقة والعمق ، فشعر أبى الطيب بعيد الأغوار يغترف منه من جاء بعده ، ولقد تناولت كتب كثيرة أبياته بالشرح والتحقيق والموازنة .

فالأفكار هنا غير سطحية وغير ساذجة وإلا لما رأينا أفكارا فى المدح تصلح للهجاء وهذا مايؤكده المتنبى نفسه عندما يقول : « لو قلبت مدحى فيه لكان هجاء » .

والأفكار مع ذلك واضحة ولا تبدو فيهـــا الغرابة إلا عند التقديم والتأخير كمثل بيتيه اللذين يقول فيهما :

إذا ضَرَبتْ فى الحرب بالسيف كفه
تبينتْ أنَّ السيفَ بالكفِ يضرب

وقوله :

ودون الذى يبغـــون ما لو تخلصوا
إلى الموت منه عشت والطفل أشيب

ومع الدقة والعمق والوضوح أخذت الأفكار حظها من الاهتمام، فتتبع النقاد والرواة شعره ، وحكموا على أفكاره من حيث الاتباع والابتداع أحكاما مختلفة ، والنصفة منهم يعترفون لأبى الطيب بالعظمة والإبداع ، ويسجلون أفكاره التى اعتمد عليهـا لاحقوه أو أفكار سابقيه التى اقتفى أثرها وأضفى عليها من رائع بيانه ما استحقت به البقاء والذيوع والانتشار .

وقول المتنبى :

إذا ترك الإنسان أهلا وراءه
ويمم كافورا فـما يتغرب

مأخوذ من قول أبى تمام :

همُ رَهطُ من أمسى بعيدا رهطه
وبنو أبى رجل بغـير بَنِى أب

وهذا أيضاً مأخوذ من قول القائل :

نزلت على آل المهلب شـاتياً
غريباً عن الأوطان فى زمن المحل

فما زال بى إكرامهم وافتقادهم
وإلطافهم حتى حسبتهم أهـلى

وقول أبى الطيب :

إذا ضربت فى الحرب بالسيف كفه
تبينت أن السيف بالكف يضرب

مأخوذ من قول البحترى :

فلا تُغلينّ بالسيف كل غلائِه
ليمضى فإنّ الكف - لا بالسيف - يقطع[١]

وقول أبى الطيب :

وكل امرىء يولى الجميل محبب
وكل مكان ينبت العز طيب

مأخوذ كذلك من قول البحترى :

وأحب أوطان البلاد إلى الفتى
أرضٌ يَنالُ بها كريم المطلب

وقول المتنبى :

ويغنيك عما ينسب الناس أنه
إليك تناهى المكرَماتُ وتَنسبُ

وهو من قول ابن طاهر :

خلائقه للمكرمات مَناسبُ
تناهى إليها كل مجد مؤثلِ

وقول المتنبى :

وتعذلنى فيك القوافى وهمتى
كأنى بمدح قبل مدحك مذنب

ينظر فيه إلى قول أبى تمام :

وهل كنت إلا مذنباً يوم انتحى
سواك بآمالى فجئتكَ تائبا

---

(١) غالى الشىء وأغلى به إذا اشتراه بثمن غالٍ.

أما قول المتنبي :

فشرق حتى ليس للشرق مشرق
وغرب حتى ليس للغرب مغرب

فمأخوذ أيضاً من قول الطائى :

فغرَّبتُ حتى لم أجد ذكر مشرق
وشرقت حتى نسيت المغاربا

وقول أبى الطيب :

وأخلاق كافور إذا شئت مدحه
وإن لم أشا تملى على وأكتب

أخذه الصاحب بن عباد فقال :

وما هذه إلا وليدةُ ليلة
يغور لها شعر الوليد ويَنضبُ
على أنها إملاء مجدك ليس لى
سوى أنه يملى على وأكتب

* * *

— ٤ —

أسلوب المتنبي بعامة قوى وجزل ، وله دوى وجرس ، وألفاظ القصيده سهلة وواضحة ، ليس بها تنافر فى الحروف ، أو غرابة فى الاستعمال ، أو مخالفة للقياس ، ولأبى الطيب من ذلك فى غير هذه القصيدة الكثير الذى لجأ إليه نكاية فيمن حوله من سماهم بالمتشاعرين ، ولقد وفق فى استخدام الكلمات التى تلائم جو المدح وتتفق مع مايريده

من ذلك ، فنراه يلجأ إلى صيغ الجموع التى تناسب المدح ، وتتلاءم مع المبالغة التى استخدمها كثيراً مع كافور فى هذه القصيدة كقوله « الأفعال، عطاياه ، أمواه ، الحساد ، سيوفاً ، المكرمات القوافى ......» .

وكلمة « الإنسان » توحى بامتداد العطف ، وشمول الرعاية لكل من وفد على كافور وليس المتنبى فحسب ، وكلمة « فتى » فى البيت الثالث تشير إلى أن الممدوح شاب يمتلأ حيوية ونشاطاً ، ويسبغ أفعاله بالرأى والحكمة .

والشاعر ينوع فى تراكيبه بين الخبر والإنشاء كقوله :

فتى يملأ الأفعال رأياً وحكمة
يريد بك الحساد ما الله دافع
وأى قبيل يستحقك قدره . ؟

إن أخذ المعنى من شعر المتنبى سهل ويسير لما فى تراكيبه من ترابط ووضوح الأمر الذى يجعل القارىء مشدوداً إلى شعره متتبعاً لمعانيه .

والشاعر فى هذه القصيدة يعمد كثيراً إلى الأطناب لتقرير المعنى وتأكيد المدح ففى قوله :

سللت سيوفاً علمت كل خاطب
على كل عود كيف يدعو ويخطب

بسط وتفصيل للمعنى ، وعرض ، لكل جوانبه ، فهو يقول : كل خاطب ، وعلى كل عود ثم يقول : كيف يدعو ويخطب ؟ فيؤكد المعنى بهذه التراكيب المتتابعة المتنوعة خبراً وإنشاء .

وفى قوله :

فشرق حتى! ليس للشرق مشرق
وغرب حتى ليس للغرب مغرب

إطناب لتأكيد المعنى المقصود من البيت ، وهو بيان أن شعره نافذ إلى كل حاضرة وكل بادية ، ثم جاء البيت الذى يليه وهو البيت الأخير كالتأكيد للبيت السابق بالإطناب أيضاً .

والشاعر يكرر بعض الكلمات التى تؤكد المعنى وتناسب جو المدح مثل كلمة « كل » التى كررها كثيراً « كل امرىء . . كل مكان . . . كل خاطب . . . كل عود . . . كلُّ حبيبه . . » وفى تقديم الجار والمجرور على الفاعل فى البيت الرابع ما يشعر بالتخصص « وبيان تعود الممدوح على الحرب مما يؤكد شجاعته ، ولنعد إلى قراءة البيت لنتحسس ما به من مبالغة قال :

إذا ضربت فى الحرب بالسيف كفه
تبينت أن السيف بالكف يضرب

إذ جعل السيف يضرب وحده دون إعمال كفه ، ولكنها مبالغة توحى بسرعة الضرب حتى لا يرى الرائى سوى السيف .

وفى البيت التاسع عشر قدم « إلى الموت » لبيان حرص الممدوح على الموت لشجاعته ، وقدم « من العار » على الفعل لوضوح هروبه ونفوره من العار .

وقد شاعت الحكمة والأمثال فى هذه القصيدة شيوعها فى سائر شعر أبى الطيب مثل قوله فى البيت الحادى عشر :

وكل أمرىء يولى الجميل محبب
وكل مكان ينبت العز طيب

وقوله فى البيت الخامس عشر :

ولكن من الأشياء ماليس يوهب

وفى قوله : ومالك إلا الهندوانى مخلب ، تأكيد للمعنى وتقوية لصفة شجاعته قصراً لمخلبه على الهندوانى .

والشاعر قد استبطأ الفضل والخير من الممدوح فسأله وألح فى سؤاله قال :

أبا المسك هل فى الكأس فضل أناله
فإنى أغنى منذ حين وتشرب

والذى يقرأ هذا البيت ، ويتبين ما فيه من تعريض لايشك فى جرأة أبى الطيب ، واستهانته بكافور ، كما يتبادر إلى ذهنه بخل الممدوح على شعرائه ، وأرى أن الشاعر قد أساء إلى نفسه ، ونزل بها إلى مستوى لايتناسب مع مكانته ومنزلته بين شعراء عصره، فلايليق به أن يستبطىء السقيا من بقايا كأس كافور ، ولكن طموحه الملح هو الذى أغراه بذلك طمعاً فى الجاه والولاية .

والاستفهام فى قوله : « وأين من المشتاق عنقاء مغرب » للاستبعاد ، وبيان أن الوصول إلى من يهواهم ويحبهم أمر صعب المنال عسير التحقيق ؛ وذلك حتى يثير انتباه كافور ويهيىء ذهنه ووجدانه لما يعرض عليه . وقوله : « وأى قبيل يستحقك قدره » استفهام إنكارى بمعنى النفى .

وليس للمتنبى كلف بالبديع ، ومايجىء منه يأت عفواً كالطباق فى قوله : « يرضى ويغضب » بالبيت الثالث .

وكالمقابلة بين شطرى البيت السادس والعشرين الذى يقول فيه :

فشرق حتى ليس للشرق مشرق
وغرب حتى ليس للغرب مغرب

وفى هذه البائية نغم متلائم ، وشعر المتنبي يقوم كله على تلاؤم النغم ، والضمة التى على الباء زادت القافية رصانة إلى جانب الموسيقى الداخلية التى تتمثل فى المحسنات وهى قليلة فى هذه القصيدة ، ثم فى التلاؤم بين الألفاظ واتصال بعضها ببعض ، وللمتنبي فى ذلك قدرة وبراعة .

— ٥ —

يعمد أبو الطيب إلى المبالغة التى تناسب المدح فهو يصور كافورا تصويراً رائعاً فى البيت الثالث عشر الذى يقول فيه :

ودون الذى يبغون مالو تخلصوا
إلى الموت منه عشت والطفل أشيب

فالآباء يموتون دون أن تتحقق بغيتهم ، ولو عاشوا لرأوا من الأفعال ماتشيب له الأطفال ، وكما أكد شجاعته على حساده أكدها أيضاً فى ساحة القتال بالمبالغة التى يستخدمها الشاعر مع ممدوحية ، لأنه كلما عظمت المبالغة زاد العطاء فهو يقول له فى البيت التاسع عشر : أنت شجاع تدافع عن الملك بنفس كريمة بحيث تهرب فى الحرب من العار إلى الموت

وفى البيتين الحادى والعشرين والثانى والعشرين مبالغة غير مقبولة فهو يقول لممدوحه : أنت فى غنى عن النسب لأن المكرمات تنتهى إليك ثم ينفى أن تكون هناك قبيلة تستحق قدره أو منزلته بالانتساب إليها، ويذكر أن معد بن عدنان ويعرب بن قحطان فداء لكافور، العبد الحبشى الأسود ، القصير القامة ، المنتفخ البطن ! على أن التبريزى وهو ممن شرحوا ديوان المتنبي قال عن البيت الأول :

« ليس هذا مما يمدح به لأنه أشبه بنفي النسب عنه ...وقال عن الثانى :
« هذه سخرية منه » .

ومن الصور الخيالية — وهى قليلة فى هذه القصيدة — التشخيص فى البيت الأول حيث جعل الأخلاق تملى عليه مايقوله ويكتبه عن كافور وجعل جودة كاسياً ، وانشغاله عنه سالبا وناهبا وذلك فى البيت السابع.

وجعل السيوف تعلم الخطباء كيف يدعون لكافور ويخطبون باسمه فى البيت العشرين .

وجعل فى البيت الثالث الأفعال وعاء لآرائه وحكمه ونوادره ، والاستعارة هنا جميلة بديعة ، لأنه جسم فيها المعنى وأبرزه فى صورة محسوسة

ويجسم فى البيت الرابع والعشرين القوافى وهمته ، ويجعلها شخوصاً يملؤها التيه ، وهى تلومه باستعلائها لوما عنيفاً على مديحه إياه ، وهذا هو الهجاء الذى يتعدى التعريض إلى التصريح ، لكنه ستره بصريح المدح فى الشطر الثانى من البيت وهذه المقدرة الغريبة فى إبراز المعانى وتصويرها على على هذا الوجه وتحملها لأكثر من وجه لاتتأتى لكل شاعر .

ثم نقرأ فى البيت الثامن عشر فنراه قد جعل كافوراً ليثا ثم استعار له مخلباً ، وجعل الملك عرينا والأخشيدى الصغير شبلا ، والهندوانى مخلبا ، لتكتمل الصورة فى وصف الممدوح بالشجاعة والقوة ، وتبرز المعانى فى صور محسوسة نابضة بالحياة ، وقوله فى البيت التاسع « وأين من المشتاق عنقاء مغرب ؟ مثل ، قصد به الإشارة إلى البعد بينه وبين أهله وأحبته

ويحكى ابن الكلبى أصل المثل فيقول :(١) « كان لأهل الرس نبى

---

(١) راجع ديوان المتنبى شرح البرقوقى جـ ١ ص ٣٠٧
طبعة دار الكتاب العربى — بيروت — لبنان سنة ١٩٨٠ م

يقال له حنظلة بن صفوان ، وكان بأرضهم جبل يقال له : دمغ، مصعده فى السماء ميل، فكان ينتابه طائرة كأعظم مايكون ، لها عنق طويل ، وكانت تقع منقضة ، فكانت تنقض على الطير فتأكلها فجاعت وانقضت على صبى فذهبت به ، فسميت عنقاء مغربا ، لأنها تغرب بكل ماأخذته ، ثم انقضت على جارية « وليدة » ترعرعت فضمتها إلى جناحين صغيرين — سوى جناحيها الكبيرين — ثم طارت بها فشكوا ذلك إلى نبيهم ، فدعا عليها ، فسلط الله عليها آفة فهلكت ، فضربتها العرب مثلا فى أشعارها : يقولون ألوت به العنقاء المغرب وطارت به العنقاء المغرب : يريدون هلاكه أو ذهوبه إلى حيث لا يرجع» .

وهذا المثل الذى ساقه ابن الكلبى يشير إلى خرافة عربية وهى العنقاء التى كان العرب يتخيلون بها كل شىء غريب .

وفى البيت السابع والعشرين جعل الشاعر الجدار المعلى كناية عن الحضر ، والخباء المطنب كناية عن البادية .

والبيت الثالث والعشرون لايتناسب معناه مع جو المدح ، لأنه أقرب إلى الاستهزاء منه إلى المدح لأنه ليس مقبولا أن تكون الغاية من لقاء الممدوح ورؤيته فرحه بما يرجوه منه قال ابن جنى : لما قرأت على أبى الطيب هذا البيت قلت له : مازدت على أن جعلت الرجل أبا زنَّة وهى كنية القرد — فضحك أبو الطيب .

فالصور الخيالية فى هذه القصيدة قليلة ، وليست فى مستوى تلك الصور التى تزخر بها « السيفيات » ، ولهذا كانت مدائح المتنبى لسيف الدولة أفضل وأقوى بكثير من مدائحه لكافور الأخشيدى وهذا راجع إلى قوة العاطفة وضعفها، وإلى صدقها وكذبها ، فلم يكن أبو الطيب فيما قاله فى مدح

صادرا عن عاطفة قوية أو اعتقاد جازم أو إيمان بما يقول، إنما كان كل همه أن يظفر بما يطمح إليه .

وصـــدق العاطفة ضرورى لجودة التصوير وإبراز المعنى، ويرى الدكتور طه حسين أن أبا الطيب صادق كاذب فى وقت واحد . قال : «كان صادقا حين أراد المدح ولم يرد غيره، وكان كاذبا لأنه لم يمدح عن يقين ولا عن إيمان، وإنما مدح عن رغبة وطمع فقال غير ما يعتقد وأتى بغير ما يرى »[1] .

والحقيقه أن أبا الطيب لم يتوفر لقصيدته الصدق الفنى الذى يقول فيه الشاعر ما يعتقده ويؤمن به، . فهو صادق مع نفسه لكنه كاذب مع الآخرين .

— ٦ —

تعبر هـــذه البائية عن شاعرها أصدق تعبير ففيها من ملامح شعره الحكمة والألفاظ الجزلة والمعانى المبتكرة، والافتخار بالنفس عند مدح الآخرين، والإشادة بمواهبه وفنه الشعرى، والطلب تصريحا وتعريضا بإنجاز الوعود، والقصيدة تكشف بوضوح عن الحالة النفسية التى لازمت أبا الطيب فى مصر، فهو قلق مضطرب، خائف على نفسه من الفشل فى تحقيق الأمانى، والقصيدة تعبر عن مرحلة من عمره عاشها فى رحاب كافور، وهى تسجيل لبعض أحداث العصر، ففيها الأخشيدى والحساد كأبى شجاع فاتك الذى كان يخاصم ويقاوم كافورا، وفيها من ملامح العصر مدح الملوك والأمراء بمجالسهم فى مقابل ما يدفع إلى الشعراء من منح وعطايا .

---

(١) مع المتنبى ص ٣٠٣ طبعة دار المعارف بمصر .

قصيدة « أراك عصى الدمع » لأبي فراس الحمداني

— ١ —

تقديم واستهلال

١ — أراك عصيَّ الدمع شيمتُكَ الصبرُ
أما للهوى نهيٌ عليك ولا أمرُ

٢ — نعم أنا مشتاقٌ وعنديَ لوعةٌ
ولكنَّ مثلي لا يذاعُ له سر

٣ — إذا الليل أضواني بسطتُ يدالهوى
وأذللت دمعاً من خلائقهِ الكبر

٤ — تكاد تضيءُ النار بين جوانحي
إذا هيَ أذكتها الصبابة والفكر

---

(١) الخطاب لنفسه على طريقة التجريد ، كأنه جرد من نفسه شخصاً آخر وقال له : أراك ... الخ
شيمتك : طبعك وخلقك .

(٢) لوعة الحب : حرقته .

(٣) أضواني : عذبني وشجاني وخيم على . خلائقه : جمع خليقة وهي الطبع والصفة المميزة .

(٤) الجوانح : أوائل الضلوع تحت الترائب . أذكتها : أشعلتها الصبابة : الشوق .

٥ — مُعللتى بالوصل ، والموت دونهُ
إذا مت ظمآنا فلا نزل القطرُ

٦ — بَدوتُ، وأهلى حاضرون ، لأننى
أرى أن دارا لستِ من أهلها قفرُ

٧ — وحاربت قومى فى هواك ، وإنهم
وإياى ، لولا حبكِ ، الماء والخمرُ

٨ — وإن كان ما قال الوشاة ولم يكن
فقد يهدِمُ الإيمان ماشيدَ الكفر

— ٢ —

حوار بين الشاعر وحبيبته

٩ — وفيتُ وفى بعض الوفاء مذلة
لآنسةٍ فى الحىّ شيمتها الغــدْرُ

---

(٥) معللتى بالوصل : من تبسط لى الآمال فى الوصال « مطمعتى » القطر : المطر .

(٦) بدوت وأهلى حاضرون : اختلفت حياتى عن حياة قومى أى انصرفت عنهم وملت إليك .

(٧) وإنهم وإياى لو حبك الماء والخمر : أى ممتزجون امتزاج الماء بالخمر .

(٨) الوشاة : مفردها واش وهو من يزور كلامه ويسعى به بين الناس .

(٩) شيمتها ، طبيعتها وخلقها .

١٠ — وقورٌ ، وريعانُ الصبا يستفزُّها
فتأرَنُ ، أحيانا ، كما أرِنَ المهرُ

١١ — تُسائلنى : من أنت ؟ وهى عليمةٌ
وهل بفتىً مثلى على حاله نكرُ ؟

١٢ — فقلت كما شاءت وشاء لها الهوى
قتيلُكِ ! قالت : أيهم ؟ فهم كثْرُ

١٣ — فقلت لها : لو شئت لم تتعنتى
ولم تسألى عنى وعندك بى خبر

١٤ — ولا كان للأحزان عندى مسلكٌ
إلى القلب لكنَّ الهوى للبلى جسرُ

١٥ — فأيقنت أن لا عز بعدى لعاشق
وأنَّ يدى مما علقت به صِفْرُ

١٦ — فقالت : لقد أزرى بك الدهر بعدنا
فقلت : معاذ الله ، بل أنتِ لا الدهر

---

(١٠) وقور : أى هى وقور : ريعان الصبا : مقتبلة وأفضله ، يستفزها : يستخفها ، تأرن : تمرح وتنشط ، يقال : مهر أرن أى مرح ونشيط .

(١٣) لم تتعنتى : أى تتعنتينى ، وتعنته : سأله عن شىء أراد التلبيس عليه والمشقة .

(١٦) أزرى بك : غير حالك ، وأساء إليك .

١٧ — وقلبتُ أمرى لاأرى لى راحةً
إذا البين أنسانى ألحَّ بىَ الهجر

١٨ — فعدتُ إلى حكم الزمان وحكمها
لها الذنب لاتجزَى به ولىَ العذر

١٩ — كأنى أنادِى دون ميثاءَ ظبيةً
على شرف ظمياءَ جللها الذعر

٢٠ — تجفلُ حينا ، ثم تدنو كأنها
تنادى طلاً بالجرى أعجزه الحضرُ

— ٣ —

فخر واعتزاز

٢١ — وإنى لنزالٌ بكل مخوفةٍ
كثيرٌ إلى نزّالها النظر الشزرُ

٢٢ — وإنى لجرار لكل كتيبة
معودةٍ أنْ لا يخل بها النصر

---

(١٧) البين : الفراق والبعد .

(١٨) العذر : الاعتذار .

(١٩) الميثاء : الأرض السهلة . الشرف: المكان المرتفع، ظمياء : رقيقة الجفون . جللها الذعر : شملها الخوف

(٢٠) تجفل: تسرع. الطلا: ولد الغزالة ساعة يولد. الحضر :الركض.

(٢١) المخوفة : أى أرض يخاف فيها . الشزر : نظر فيه إعراض كنظر الغضبان المباغض .

(٢٢) الكتيبة : العسكر المجتمع أو الجماعة من الخيل اذا أغارت من المائة إلى الألف . يخل بها : يتركها .

٢٣ — فأصدى إلى أن ترتوى البيضُ والقنا
وأسغب حتى يَشبعَ الذئب والنسرُ

٢٤ — ولا أصبحُ الحى الخلوفَ بغارة
أو الجيشَ ما لم تأته قبلَ النذر

٢٥ — ويارب دارٍ ، لم تخفنى ، منيعةٍ
طلعت عليها بالردى أنا والفجر

٢٦ — وساحبةِ الأذيال نحوى لقيتها
فلم يلقها جافى اللقاء ولا وعر

٢٧ — وهبت لها ماحازه الجيش كلّه
ورحت ولم يكشفْ لأبياتها ستر

٢٨ — ولا راح يطغينى بأثوابه الغنى
ولا بات يثنينى عن الكرم الفقر

---

(٢٣) أصدى : أظمأ ، البيض : السيوف . والقنا : جمع قناة وهى الرمح : أسغب : أجوع .

(٢٤) الحى الخلوف : أى الغائب رجاله .

(٢٥) دار منيعة : حصينة ، الردى : الهلاك .

(٢٦) ساحبة الأذيال : فتاة ساحبة الأذيال كناية عن تبخترها ، جافى اللقاء : غليظ خشن .

(٢٧) حازه : جمعه .

(٢٨) يطغينى : يجعلنى طاغيا أى مجاوزا الحد . يثنينى : يكفنى ويصرفنى .

٢٩ — وما حاجتى بالمال أبغى وفوره
إذا لم أفِرْ عرضى فلا وفرَ الوَفْرُ

— ٤ —

قصة الأسر

٣٠ — أسرت وما صحبى بعزل لدى الوغى
ولا فرسى مهرٌ ولا ربُّه غُمْرُ

٣١ — ولكنْ إذا حم القضاء على أمرىء
فليس له برٌّ يقيه ولا بحر

٣٢ — وقال أصيحابى : الفرار أو الردى
فقلت : هما أمران أحلاهما مُرُّ

٣٣ — ولكننى أمضى لما لا يعيبنى
وحسبك من أمرين خيرهما الأسر

---

(٢٩) الوفر : المال .

(٣٠) العزل : جمع أعزل وهو من لا سلاح معه . المهر : ولد الفرس أوأول ماينتج منه ومن غيره ، أى أن فرسه مجرب، ورب كل شىء: ما لكه، والغمر : من لم يجرب الأمور ، وأراد بربه غمر أى أنه ليس حديث عهد بخوض المعارك .

(٣١) حم القضاء : قضى .

(٣٢) الردى : الهلاك ، أصيحابى : تصغير أصحابى .

(٣٣) حسبك : كفاك .

٣٤ — ولا خير فى دفع الردى بمذلةٍ
كما ردَّها يوما بسوءته عَمْـــرو

٣٥ — يَمنُّون أن خلوْا ثيابى ، وإنما
على ثيابٌ ، من دمائهم حمر

٣٦ — وقائمُ سيف فيهم اندق نصلهُ
وأعقابُ رمح فيهم حُطمَ الصدر

— ٥ —

عودة إلى الفخر

٣٧ — سيذكرنى قومى إذا جَدَّ جِدُّهم
وفى الليلة الظلماء يفتقدُ البدر

٣٨ — ولو سدغيرى ماسددت اكتفَوْا به
وما كان يغلو التبر لو نفق الصُّفر

---

(٣٤) السوأة : العورة والفاحشة — عمرو : هو عمرو بن العاص الذى أدركه على بن أبى طالب وهم بقتله فكشف عمرو عن سوأته لعلمه أن عليا لم ير سوأة قط فكف ، ولهذا قيل فيه : كرم الله وجهه .

(٣٥) من عليه : أى أنعم عليه ، خلوا ثيابى : تركوها.

(٣٦) قائم سيف وقائمته : مقبضه .

(٣٧) الجد بالكسر : الاجتهاد فى الأمر .

(٣٨) يغلو ضد يرخص ، ونفق الشيء : راج . التبر : الذهب غير المضروب ، والصفر : النحاس الأصفر .

٣٩ — ونحن أناس ، لا توسُّطَ بيننا
لنا الصدر دون العالمين أو القبر

٤٠ — تهون علينا فى المعالى نفوسنا
ومن خطب الحسناء لم يُغلِهَا المهر

٤١ — أعزُّ بنى الدنيا وأعلى ذوى العلا
وأكرم مَنْ فوق التراب ولا فخرُ

* * *

— ١ —

التعريف بأبى فراس :

أبو فراس : هو الأمير الحارث بن سعيد بن حمدان ، ابن عم سيف الدولة وناصر الدولة . ولد بالموصل سنة عشرين وثلاثمائة من الهجرة ، وقتل أبوه وهو طفل صغير لم يتجاوز الثالثة من عمره ، فنشأ فى كنف أخيه الحسين بمنبج وهى إحدى مدن الشام ، وغمرته أمه الرءوم بحنانها ، واهتمت بتربيته وتثقيفه ، ووزعت وقته بين مجلسين : مجلس بين أهل الأدب واللغة ، ومجلس فوق صهوات الخيل .

وفى سنة ست وثلاثين وثلاثمائة وصلته رسالة عاجلة من سيف الدولة يحثه فيها على الإسراع إلى حلب دون تعويق فهو شاعر ، فارس ، عريق الأصل ، وفى مقتبل العمر ، وابن عمه سيف الدولة وهو فى هذه السن يشهد الحروب ، ويسجل أحداثها فى شعره .

---

(٤٠) أغلا الشىء : جعله غاليا ، ولم يغلها المهر أى لم يجعل الحسناء غالية ، لأنها أحسن من المهر ، أو لنفاستها لم تكن غالية .

ولقد وقع فى الأسر مرتين : الأولى ، وكانت فى سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة ، عندما عزم سيف الدولة على ضرب الروم فى بلادهم ، وكان أبو فراس قائداً للقسم الأعظم من الجيش ، فوقع فى الأسر بعد أن نصب له الروم (كميناً) بمعاونة أحد الخونة فى جيش سيف الدولة ، وهرب أبو فراس من أسره وتزوج وأنجب بنتا .

أما الثانية فكانت فى سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة عند ما زحف الروم إلى مدينة حلب ، ودافع أبو فراس عن معقل أسرته دفاع الأبطال فجرح فى فخذه ، ونقله الروم أسيرا إلى القسطنطينية ، وقضى فيها أربع سنوات ، ونظم فى السجن مجموعة من القصائد امتازت بالرقة والحنين إلى الوطن ، والتى عرفت فى الشعر العربى باسم «الروميات» .

ولقد اختلف المؤرخون فى سبب إبطاء سيف الدولة وتراخيه فى مفاداة أبى فراس وإطلاق سراحه ، فمن قائل : إن دسيسة قد أفسدت ما بين الرجلين إلى قائل بأنه اتهم بالحرب لحساب الروم ، كما نقل أن سيف الدولة قد رفض أن يفديه دون الثلاثمائة الذين كانوا معه ، ولقد تحقق الفداء على يد زوجته (نجلاء) ولم يكن لأخته (أسماء) زوج سيف الدولة يد فى ذلك .

ومر عام بعد الفك من الأسر مات فيه سيف الدولة ، وتولى ابنه أبو المعالى سعد الدولة زمام الحكم بعد أبيه ، وكان صغيرا لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره ، ولم يستطع أبو المعالى القيام بهذه المهمة فعاونه وأشرف عليه «قرعويه» غلام أبيه وقائد جيوشه .

حزن أبو فراس لمعاداة ابن أخته ، الذى أصبح لعبة فى يد الطامعين فخرج عليه سنة ٣٥٧ هـ وضم إليه حمص ، وأرسل أبو المعالى جيشا لمحاربته فتفرق من كان مع أبى فراس ، ولقى حتفه فى هذه السنة وهو

ابن سبعة وثلاثين عاما ، وقد شهد له أبو الطيب المتنبي بالتقدم والتبريز ، وكان يخشاه ويتحاشاه كما شهد له الصاحب بن عباد وقال فيه : « بدىء الشعر بملك ، وختم بملك ، ويعنى بالأول امرىء القيس وبالثانى أبى فراس الحمدانى » .

— ٢ —

مناسبة القصيدة وجوها النفسى :

القصيدة التى معنا إحدى القصائد التى نظمها أبو فراس فى أسره بالقسطنطينية ، وهى التى أطلق عليها اسم « الروميات » ، ولقد امتازت هذه القصائد بالرقة والعمق والجـــودة ، والحنين إلى الوطن والأهل والأحباب ، وهى تكشف عن مدى شكواه وعمق حزنه ورثائه لأقربائه الذين ماتوا أثناء غيابه عن الوطن .

لم يفقد أبو فراس فى أسره الإيمان بالله وبالوطن فكان قويا شجاعا ، وعندما يمتدح قومه ويفتخر بأمجادهم ينسى أنه أسير ، وأن القيد متشبث بيديه ، وعندما يغلبه الحنين إلى أهله ووطنه وأحبابه يبدو ضعيفا كأشد ما يكون الضعف فيتحول من قائد عظيم إلى طفل صغير ، ولقد جاء كل ما قاله فى الأسر صادقا وجيلا ورائعا . وتنوعت موضوعات رومياته بين الفخر والغزل والوصف والشكوى والإخوانيات ومما قاله فى بعضها : —

ونحن أناس لا توســـط بيننا
لنا الصدر دون العالمين أو القبر
تهونُ علينا فى المعالى نفوسنا
ومن خطب الحسناء لم يغلها المهر

وقال عند ما سمع حمامة تنوح بقربه على شجرة عالية :

أقول وقد ناحت بقربى حمامة
أيا جارتا هل تشعرين بحالى
معاذَ الهوى ما ذقت طارقة الهوى
ولا خطرت منكِ الهموم ببالى
أتحملُ محزونَ الفؤاد قوادمٌ
على غصنٍ نائى المسافة عالى
أيا جارتا ما أنصف الدهر بيننا
تعالىْ أقاسمكِ الهموم تعالىِ
تعالى تَرَىْ روحا لدى ضعيفةً
تَرَددُ فى جِسْمٍ يعذبُ بالى
أيضحك مأسورٌ وتبكى طليقة
ويسكت محزونٌ ويندب سالى
لقد كنت أولى منك بالدمع مقلةً
ولكن دمعىَ فى الحوادث غالى

ولعلنا نلاحظ الفرق الكبير بين اللونين .

وهذه الرائية التى نعرض لها ليست فى موضوع واحد كسائر القصائد، وإنما يعرض فيها أبو فراس لموضوعين منفصلين وهما النسيب والفخر ، ولكن إذا قلنا إن القصيدة فى الفخر كانت الأبيات الغزلية التى تشكل ما يقرب من نصفها مقدمة غزلية كمقدمات الجاهليين فى قصائدهم ، غير أن مقدماتهم لم تكن تصل إلى هذا الطول فلا يتبقى إلا أن نؤكد بأن

موضوع القصيدة هو النسيب والفخر . وهذا غير مستغرب ما دمنا قد عرفنا الظروف والملابسات التى قال فيها أبو فراس قصيدته ، فالأبيات عبارة عن « يوميات » للشاعر أو هى حديث نفسه لنفسه كما قال الدكتور زكى مبارك فى كتابه (الموازنة بين الشعراء) .

— ٣ —

شرح الأفكار :

الأبيات (١ — ٨) تقديم واستهلال .

استهل الشاعر القصيدة بحوار بينه وبين نفسه ، أو بينه وبين رفيق موهوم عاب عليه الصبر والتجلد ، وذكر أنه يعانى جراح الحب بصمت وخفر ، فلا يذيع أمره فى الناس ، ولا يصير حبه مضغة للأفواه صيانة لكرامته وعفته ، فهو يتعذب بالشوق ليلا ، خفية عن الناس فلا يطالعهم بدمعة الأبى الذى يسفحه بعيدا عنهم ، ولا يشكو بثه إلا إلى ظلمات الليل عندما تشتعل الصبابة والشوق بين ضلوعه ، وهو لا يزال ينتظر لقاء صاحبته التى بدت وكأن الموت أقرب منها ، ولذا فهو يتمنى أن ينقطع المطر عن الناس ما دام لا يجديه ولا يروى ظمأه ، ويذكر أنه غريب بين أهله حيث تعيش محبوبته بعيدا عنه ، أو أنه يعيش معها بروحه وقلبه ، وأن كل دار لا تقيم فيها قفر يباب ، ولقد حارب من أجل هـذا الحب الذى يدافع عنه ، ولولاه لامتزج بقومه والتصق بهم ، ويؤكد أن إيمانه بحبه كفيل بأن يهدم ما بناه الوشاة افتراضا لعلمه بعدم وجود الوشى .

الأبيات (٩ — ٢٠) حوار بين الشاعر وحبيبته .

يحكى الشاعر فى حوار بينه وبين محبوبته قصة حبه ذاكرا وفاءه

وإخلاصه اللذين قوبلا منها بالغدر ، وهى تبدو وكأنها وقور رصينة لكنها عابسة مستهترة فتلهو وتعبث كالمهر المرح ، وهى تتجاهله لتثيره وتقول له : من أنت ؟ فيتعجب الشاعر من أمرها لأنه علم معروف لا يجهله أحد ، ولقد حاول أن يجاريها فيما عزمت عليه وقال لها : أنا قتيلك المتيم بحبك ، ثم تزيد فى تجاهلها وتنكرها له قائلة: أى العشاق المحبين أنت؟ فإنهم كثيرون من حولى ، ثم يعاتبها على تعنتها ويفتضح دلالها لأنها تعرفه فليس لها أن تسأل عنه ، وذكر أنه لم يكن يعرف طريقا للأحزان إلا أن الحب أوصله للهوان الذى عانى منه ، ولن يعود إلى هذه التجربة التى فشل فيها وخرج منها صفر اليدين ، وترد عليه محبوبته بالاعتذار عما بدر منها بالقول : إنها لم تكن تعرفه للهزال والتغير اللذين اعتراه بهما الدهر ، ويرد عليها بأن الحب هو سبب الموت والهلاك وليس الدهر كما تزعم وتدعى .

عاد الشاعر إلى نفسه فلم يجد لها راحة ، لأنه حاول بالفراق أن ينساها لكنه لا يقدر لضعفه أمام حبها فرأى أن يلقى بالتبعة إلى الزمان الذى حكم بأنها إذا أذنبت فلا تؤاخذ بذنبها وله أن يعتذر عن هذا الذنب .

ثم صور تقربها منه وابتعادها عنه بظبية مذعورة على مكان مرتفع ينادى عليها فتسرع حينا وتقترب منه أحيانا، كأنها تنادى على ولدها الصغير العاجز عن الركض والجرى .

الأبيات (٢١ — ٢٩) فخر واعتزاز.

يذكر أبو فراس أنه كثير النزول بأرض يخاف فيها لكثرة الأعداء وكثرة نظراتهم البغيضة ، وهو القائد الشجاع الذى خاض المعارك وقاد الكتائب ، وهو لم يقد جيشا إلا كان له النصر والغلبة ، فيظل صديان حتى ترتوى السيوف والرماح ويبقى جوعان حتى تشبع الذئاب والنسور

من لحوم الأعداء، ثم افتخر بأدبه فى الحرب فقال : إنه لا يشن غارة على أعدائه ما لم ينذرهم مسبقا فلا يكون فيها تبييت وترصد .

ورب قوم بواسل ذوى منعة وتحصن طلع عليهم وقت الفجر فكانت غارته عليهم هلاكا لهم ، ويستطرد فى حديثه عن نفسه إلى الافتخار بأدبه فى الحرب ، فلا يقبل الضيم ، ولا يرضى أن تستغيث به امرأة دون أن يعفو ويصفح عن قومها ، وإنه ليهب لها كل ما حازة الجيش ، ويعيد إليهم كل ما أخذ منهم فلا يفضح لأهلها بيتا ولا يكشف لهم سترا ، وهو لا يطغى بما عنده من مال ، ولا يبخل عندما تقل النقود من يده ، فهو ليس محتاجا إلى المال بقدر حرصه على طهارة عرضه ونظافة منبته .

الأبيات (٣٦ — ٦٠) قصة الأسر .

يكف الشاعر فى هذه الأبيات عن الشكوى ويميل إلى الفخر بشجاعته، من خلال قصة أسرة فى القسطنطينية فيقول : إنه وقع فى الأسر مع وفرة السلاح لدى أصحابه ، كما أن فرسه لم يكن صغيرا ، ولم يكن أبو فراس نفسه غافلا عن الحروب ، ثم يتنصل من مسئوليته ، ويلقى بها على القدر الذى لا يفلت منه أحد .

ولقد نصحه أصحابه بالفرار ولا هلكوا ، فقال لهم : إن أحلى الأمرين مر فالفرار لا يخلف إلا الذل والمهانة ، وسوف يمضى فى طريقه ، ويكفيه فخرا أنه دخل الحرب ، وفضل القتال الذى أعقبه الأسر على الهرب ، وهذا وجه من وجوه البطولة، ودلالة على أن الشاعر ليس جبانا ، ومن العار أن يدافع الإنسان عن نفسه بالذل كما فعل عمرو بن العاص عندما هم على رضى الله عنه بقتله فكشف له عن سوءته فأعرض عنه على فقيل له : « كرم الله وجهه » .

ويواصل شاعرنا الفخر بما وقع له فى أسره فيذكر أن الروم لم يجردوه

من ثيابه زاعمين أن ذلك تفضل منهم مع أن ثيابه حمراء لتلطخها بدمائهم ، ولقد اندقت فيهم نصال السيوف وحطمت صدورهم أعقاب الرماح فسالت دماؤهم على ثيابه .

الأبيات (٣٧ — ٤١) عودة إلى الفخر .

يقول أبو فراس : إن قومى سيذكروننى ويعرفون فضلى عندما تطبق عليهم الشدائد ، عند ذلك سيدركون قيمتى ، كالقمر لا يقدره الناس إلا فى الليلة الظلماء . ولو وجدوا من الأبطال من يقوم مقامى لاكتفوا به كالذهب ما كان ليرتفع له قدر لو قام النحاس مقامه ، ويؤكد أن قبيلته كلها من الشجعان فإما أن يكونوا شجعانا لهم الصدارة ، وإما أن يموتوا فباطن الأرض أولى بهم من ظاهرها .

ويقول : إننا نجود بأنفسنا رخيصة فى سبيل المعالى كالذى يخطب امرأة لا يهمه ما يبذل فى سبيل جمالها وفتنتها ، وهم أكرم الناس وأعلى بنى العلا وأشرف من حلته الأرض .

مناقشة الأفكار :

لقد اشتملت هذه القصيدة على مجموعة من الأفكار جلاها أبو فراس برائع بيانه وصدق إحساسه ، وعرضها عرضا واضحا لا لبس فيه ولا غموض ، فلقد بدأها بالغزل وهو فى أسره بما يؤكد قوة عزيمته وعدم استسلامه . وانتصاره على الواقع — واستطاع أن يلائم بين الغزل والفخر ، لأنه تغزل بما يتحلى به فى الحب من صفات المحب الصادق فى حبه ، الوفى الخاضع لمن يهواه .

وإننا لنقرأ من خلال غزله أنه صاحب الدمع العصى ، وأن الصبر شيمته ، وأنه لايجد للهوى سلطانا عليه ، وهو ذو عشق ولوعة ، ولايذيع

سرا ولا يبسط هواه إلا ليلا ، وأنه قد حارب قومه وعاش بينهم مغتربا ، وهو وفى ، ووقور ، عاشق ولهان ، وهو يعرض لصفاته حتى يظهر أمام محبوبته بمظهر مثالى .

راجع الأبيات (١ — ٢٠).

وفى فخره نلمس شجاعته وبطولته ، فلا يتخلف عن حرب أو عن قيادة جيش ، وهـــو يعطش حتى ترتوى السيوف والرماح من دماء الأعداء ، ويجوع حتى تشبع الذئاب والنسور من لحوم الأعداء ، ولا يفاجىء أعداءه بالغدر ، وهو يتقبل شفاعة المرأة فيعفو عن أهلها ، ولا تزحزحه الأموال عن كريم خلاله ، وفى قصة أسره يحكى أن قومه لم يكونوا عزلا ، وأنه كان متأهبا للحرب ، فلم يكن فرسه مهرا ، ولم يكن ربه غمرا ، وهو يؤثر الأسر على الهرب ، ويرد كل أمر إلى قدر الله ، ولا يلجأ إلى دفع الردى بمذلة ، ويعود فى آخر القصيدة إلى الفخر بنفسه والتمدح بقومه بعد أن كان قد أغفلهم لتوانيهم عن إفدائه .

راجع الأبيات (٢١ — ٤١) .

وهكذا تبدو الأفكار واضحة لا لبس فيها ولا غموض ، والوضوح بسبب حسن العرض وعدم التعثر فى تقديم أو تأخير ، أو تعقيد لفظى أو معنوى .

وأثر الوضوح بين جلى فى قصة أسره ومحنته فى الحب ، وافتخاره بقومه ، كما تبدو الأفكار سهلة المأخذ ، وليست على درجة كبيرة من العمق .

وليست كل الأفكار فى هذه القصيدة جديدة أو مبتكرة فلا ننتظر من شاعر حزين أن يغوص ويتأمل ويفكر ، والجديد فيها يرجع إلى

حسن العرض وجودة السبك ، والأفكار الجديدة التي يمكن أن يلمسها القارىء المتذوق تتضح في استجابته للمرأة عندما تشفع لخصمائه المتحاربين إذا كانوا قومها ، فيهش للقائها ويبش بقدومها ويهبها ماجمعه الجيش دون أن ينال منها غرضا ، أو يكشف لأبياتها سترا ، ولا تنتظر من شاعر مأسور حزين ملتاع أن يبحث عن أفكار جديدة .

فالقصيدة ليست إلا مجموعة من الأفكار والخواطر .

هذه الخواطر والأفكار قد ترابطت وتسلسلت في الجزء الأول من القصيدة الذي تحدث فيه عن الحب والعشق والهوى والدموع والأحزان والهجر والغدر ، ثم بدأت الأفكار غير مرتبة في الجزء الثاني الذي افتخر فيه بشجاعته وبسالته في الحروب وأدبه في القتال ، وذكر فيه قصة أسره وافتخاره بقومه .

وربما يتسرع البعض في الحكم على ما في هذه القصيدة من أفكار بالذاتية ممثلة في قصة حبه وافتخاره بنفسه وبقومه ولكن الواقع غير ذلك ، إذ أن الصفات التي يفاخر بها أبو فراس تمثل صفات القائد العربي المسلم ، الذي يجاهد أعداء الإسلام والعرب ، فالقصيدة بهذه الأفكار نموذج حي لأدب البطولة ، وأفكارها إنسانية عامة تعبر عما بداخل كل بطل عربي مؤمن بدينه وقوميته وعروبته .

ذكر الدكتور زكي مبارك أن قول أبي فراس[1] .

بدوت وأهلي حاضرون لأنني
أرى أن دارا لست من أهلها قفر

(١) انظر الموازنة بين الشعراء ص ٣٢٠

مأخوذ من قول جميل :

أبيتُ مع الهلاكِ ضيفا لأهلها
وأهلى قريبٌ موسعُونَ ذوو فضل

وأن قول أبى فراس :

وحاربت قومى فى هواك وإنهم
وإياى لولا حبك الماء والخمر

مأخوذ كذلك من قول جميل :

كأنْ لم نحارب يابُثَينَ لو أنها
تكشَّفَ غمّاها وأنت صديق

وعندما نستعرض الأفكار التى سبق بيانها، ونستعرض حياة الشاعر فى حروبه ضد الروم وأسره فى القسطنطينية ، ونتابع قصة هذا الأسر نرى أن هذه الأفكار التى عرضنا لها تكشف عن شخصية أبى فراس فى حمله للسيف والقلم ، وانتقاله من الإمارة إلى الأسر ، ومن العيش فى حرية إلى تكبله بالقيود والأغلال .

— ٤ —

الألفاظ والأساليب والموسيقى وملاءمتها للجو الشعورى :

عبر أبو فراس فى هذه القصيدة عن نفسه أصدق تعبير عندما وصف ضعفه الإنسانى ومجده وكبرياءه وشجاعته وانتخاره بقومه ، ولقد رأيناه فى هذه الرومية حرا طليقا يتغزل ، وأسدا مأسورا يبكى فلا يزيدنا ذلك إلا إيمانا بقدرته واعترافا بصدقه وإخلاصه .

لقد فجر الأسر تجاربه ، وأشعل وجدانه فجاء شعره دمعا ودما وأنينا وحنينا ، ونراه يحب ويبكى ثم يصبر ليفتخر ويداوى جراحه .

ويكشف عن نفسيته مع مطلع القصيدة ، فهو امرؤ إيجابي النزعة يؤمن بالكرامة وعفة النفس ، ويحرص على أن يكتم ما قد يذله وينتقص من رجولته .

وفى حواره مع حبيبته نرى تجاهلها له وعدم اكتراثها به ، ثم نرى افتضاحه لهذا التجاهل والدلال ، وينتهى الشاعر معهـا إلى حالة من القنوط واليأس .

ثم بدأ فى فخره قائدا شجاعا وبطلا مغوارا يلتزم بأدب النفس وأدب الحرب ، ولا تطغيه الأموال أو الانتصارات ، وكل ما يهمه هو الحفاظ على العرض .

ويكشف فى قصة أسره عما حدث له بدءا بقوله (أسرت) ، ويئن فى الشكوى ، ويحاول أن يرفع مسئولية الأسر عن كاهله وينيطها بالقضاء والقدر ، ويذكر ما جرى له ولصحبه ، ثم تنتهى القصيدة بمعاينة قومه وافتخاره بهم أخيرا .

فالقصيدة تمثل تجربة وجدانية للحب فى نفس فارس شجاع تحول الخصام بينه وبين حبيبته إلى صراع حول الكرامة والقيم .

وقد ألم الشاعر بالألفاظ الموحية التى تعبر عن هذا الواقع مثل «الصبر اللوعة — الإذلال — الكبر — الوفاء والغدر — الفكر والوصل — لم تتعنتى — فتأرن ، وما إليها » .

وكلمة (الليل) فى البيت الثالث ترمز إلى التكتم والصمود والأخلاق .

وكلمة (الموت) فى البيت الخامس تشير إلى موت العذاب والحرمان وحديثه الدائم عن الموت هو تعبير عن التردد الذى يعانيه فى نفسه ، وهذا شىء طبيعى لأنه لايرى الموت دائما فى كل معاركه ، فلنطالع تلك الكلمات التى تكشف عما بداخله « والموت دونه — قتيلك ، ولكن

إذا حم القضاء على امرىء — الردى — على ثياب من دمائهم حمر — تهون علينا فى المعالى نفوسنا .

كما اختار أبو فراس الألفاظ المناسبة والتراكيب الموحية للتباهى بذاته والفخر بنفسه مثل قوله : —

ولكن مثلى — وحاربت قومى — أنا والفجر — وإنى لنزال — وإنى لجرار — سيذكرنى قومى ... إلخ) .

وأبان عن مشاعره وكشف عما يلقاه فى الحب من ذل وانكار مثل قوله : —

نعم أنا مشتاق وعندى لوعة
وفيت وفى بعض الوفا مذلة
تساءلنى : من أنت ؟ وهى عليمة

ثم قوله : —

ولا كان للأحزان عند مسالك
إلى القلب لكن الهوى للبلى جسر

وقوله : —

طلعت عليها بالردى أنا والفجر

والشاعر ليس جبانا أو رعديدا حتى يفكر فى الفرار. والأسر — كما سبق أن قلت — ليس دلالة على أن المأسور جبان بل يدل على أن المقاتل قد قاوم ودافع ، ولم يهرب ، فوقع فى الأسر ، وعندما نتفهم هذه المعانى عند أبى فراس نتفهم أيضا السر فى استعماله لصيغة التصغير مع كلمة « أصيحابى » فاذا لم تكن ضرورة الشعر هى التى أوجبت ذلك فلا شك

فى أن الشاعر يقصد إلى قلة من يقترح الفرار أو أراد تحقيرهم على ذلك .

وهكذا جاءت العبارة معبرة بصدق عما فى داخل أبى فراس ، ففى غزله رأينا العبارة رقيقة والألفاظ موحية، وساعد على ذلك أن غزله كان منصرفا إلى الشكوى والأسى والندم .

وفى أبيات الفخر جاءت العبارة قوية والألفاظ معبرة فى سهولة ويسر ، ومن تتبع الأساليب فى هذه القصيدة نرى أبا فرس قد كساها حللا من الحيوية والرشاقة إلى جانب ما بها من تراكيب خبرية كثيرة كما نرى الأساليب الإنشائية متنوعة ، ومثل الاستفهام الذى أكثر منه ليوافق الحوار الذى بنيت القصيدة عليه كقوله : —

أما للهوى نهى عليك ولا أمر ؟

والإستفهام هنا للتعجب ، والإستفهام فى قوله : —

تسائلنى من أنت ؟ وهى عليمة
وهل بفتى مثلى على حاله نكر ؟

يكشف عن مدى لوعته وحسرته .

وفى قوله على لسان محبوبته :

قالت : أيهم فهم كثر . استفهام قصد به التهكم والتحقير من شأنه .

ومن الأساليب الإنشائية التى تطالعنا فى القصيدة أسلوب الشرط وهو يتفق مع الحوار والنقاش كقوله : —

إذا الليل أضوانى بسطت يد الهوى
إذا هى أذكتها الصبابة والفكر
إذا مت ظمآنا فلا نزل القطر

ويكثر أبو فراس فى رائيته من اللجوء إلى الاستدراك ، وهو مثل الشرط يلائم ما فى القصيدة من حوار ونقاش مثل قوله :

ولكن مثلى لا يذاع له سر

ولكن إذا حم القضاء على امرىء

ولكننى أمضى لما لا يعيبنى

ومن الأساليب التى لجأ إليها تنويعا للعبارة وإحياء لها ، النداء كقوله :

معللتى بالوصل ، يارب دار .

والتمنى كقوله : فلا نزل القطر ، ولاوفر الوفر

والانتقال من صيغة الخطاب إلى صيغة المتكلم

أراك عصى الدمع شيمتك الصبر

إذا الليل أضوانى بسطت يد الهوى

أو الانتقال من التكلم إلى الغيبة ، كقوله :

وساحبة الأذيال نحوى لقيتها

ولقد طور الشاعر العبارة بصيغ الحال التى أكثر منها، مثل قوله :

فلم يلقها جافى اللقاء ولا وعر — والموت دونه —

وفى بعض الوفاء مذلة — وهى عليمة — وعندك بى خبر .

كما استعمل كلمة (لا) كثيرا مما يؤكد رفضه لواقعة وعدم خضوعه واستسلامه، ولنراجع قوله : —

لا أرى لى راحة

ولا أصبح الحى الخلوف بغارة
ولا راح يطغينى بأثوابه الغنى
ولا بات يثنينى عن الكرم الفقر

ولا فرسى مهـر

ولا ربه غمـر

ولا خير فى دفع الردى بمذلة

إلى غير ذلك من اللاءات الكثيرة التى عبر بها أبو فراس عن واقعه ومعاناته .

كما يحاول تأكيد كلامه والدفاع عن نفسه بالعديد من وسائل التوكيد .

وأن يدى مما علقت به صفر
وإنى لنزال — وإنى لجرار
وهبت لها ماحاوراة الجيش كله

وشاع فى النص استعمال الحكمة مما يكشف عن خبرته فى الحياة وتجربته فى المجتمع كقوله : —

وفى بعض الوفاء مذلة
ولكن إذا حم القضاء على أمرىء
فليس له بريقيه ولا بحـر
وفى الليلة الظلماء يفتقد البدر
وما كان يغلو التبر لو نفق الصفر
ومن خطب الحسناء لم يغلها المهر

والشاعر لم يتكلف صنعه بديعية يرهق بها أسلوبه ، وماجاء منها أتى عفوا مثل الطباق الذى ألم به للإبانة عما بداخله من تنازع وانفعال كقوله : —

نهى وأمر — وأذللت والكبر — معللتى بالوصل والموت دونه ، عليمة ونكر — الذنب والعذر — تحفل وتدنو — وأصدى وترتوى وأسغب ويشبع ، وبر وبحر — الفرار والردى — خلوا ثيابى وعلى ثياب ، التبر والصفر — الصدر والقبر وغيرها .

ونرى أبا فراس يلجأ إلى الاستطراد عندما يمتدح محاسنه النفسية (راجع الأبيات السادس والعشرين إلى التاسع والعشرين) ولانتوقع من الأسر إلا الاضطراب والقلق النفسى ومحاولة التمرد والتهرب مما ألم به ، فنراه يلجأ كثيرا إلى الدفاع عن نفسه فمرة يحاول رفع مسئولية الأسر عن كاهله وإناطتها بالقدر كما يفعل ذلك كثير من الناس حين يتقهقرون ، ومرة أخرى يضعف قوة قصيدته بإرهاقها بالحجج والبينات والرد والتعليل، وله من ذلك الشيء الكثير فهو يقول : أسرت ثم يردف قائلا : وماصحبى بعزل، وقد جاءت الجملة الثانية تبريرا وتعليلا للجملة الأولى .

والشاعر يبرر ماوقع له فيستخدم « لكن » مستدركا ومفسرا بها ماكان منه، كمثل قوله : —

ولكن مثلى لايذاع له سر

لكن الهوى للبلى جسر

ولكن إذا حم القضاء على امرىء فليس له برٌ يقيه ولابحر .

ولكننى أمضى لما لايعينى

* * *

استطاع أبو فراس أن يطوع بحر الطويل الذى تجرى عليه القصيدة ويجعله وزنا وئيدا متمهلا . وليس أدل على ذلك من أن هذه القصيدة دخلت ساحة الغناء العربى ورددتها الألسنة وتغنى بها العشاق ، ويخيل إلى أن الموسيقى تعبر عما تضمره تجربة الشاعر ومعاناته ، فلم تتضخم أو تتعاظل ألفاظه ، ولم تتعقد عبارته فجاء اللحن متزنا رصينا .

وساعد على ذلك أيضا أن الشاعر قابل — كما سبقت الإشارة — بين الكثير من الكلمات فأعان ذلك على تلاحم النغم مثل قوله :

ولا راح يطغينى ، ولا بات يثنينى

ومثل قوله :

فأصدى إلى أن ترتوى البيض والقنا
وأسغب حتى يشبع الذئب والنسر

— ٥ —

الصور الخيالية : —

ليس الدمع الذى يشير إليه أبو فراس فى البيت الأول هو الدمع المأثور الذى يسيل من المآق ، وإنما يرمز به إلى العذاب والبؤس ، والحوار الذى استخدمه الشاعر بدءا بالبيت الأول يكشف عن صوتين : صوت الكرامة وصوت الإذلال .

وقوله «أراك عصى الدمع» كناية عن الصمود والأنفة ، ثم يشخص الهوى وهو الحب ويجعله ناهيا أو آمرا .

وقوله : نعم أنا مشتاق وعندى لوعة : استمرار للحوار الذى بدأ فى البيت الأول . وفى البيت الثالث :

إذا الليل أضوانى بسطت يد الهوى
وأذللت دمعا من خلائقه الكبر

وتراه يشخص الليل والهوى والدمع ويجعلها شخوصا تتحرك بفعل، الليل يعذبه ويضنيه، وشبه الهوى بإنسان تبسط يده، ونسب التذلل والكبر إلى الدمع وهي من خصائص الإنسان .

وفى البيت الرابع : استعار النار للشوق وحذف المشبه فالاستعارة تصريحية .

وقوله : « تضىء النار بين جوانحى » كناية عن تأجج الشوق واشتعاله .

وقوله : « إذا هي أذكتها الصبابة والفكر » استكمال للصورة وتشخيص للمعنى .

ومن الكنايات الجميلة التى عبرت عن حرمان أبى فراس قوله :

إذا مِتُّ ظمآنا فلا نزل القطر (١)

والعبارة قوية ولا تصدر إلا من رجل قوى .

---

(١) عرض أحمد شوقى فى مقدمة الشوقيات لبيت أبى فراس :

معللتى بالوصل والموت دونه
إذا مت ظمآنا فلا نزل القطر

ثم وازن بينه وبين قول أبى العلاء المعرى .

فلا هطلت علىَّ ولا بأرضى
سحائب ليس تنتظم البلادا

وفضل بيت أبى العلاء للأثرة والأنانية فى بيت أبى فراس ، كذلك عرض للبيتين أيضا الدكتور زكى مبارك فى كتابه « الموازنة بين الشعراء » وفضل بيت أبى فراس على بيت أبى العلاء فالأثرة من وجهة نظره من

وقوله : « وحاربت قومى فى هواك » كناية عن شدة تعلقه بها وإعزازه لها . وجعل ارتباطه واتصاله بقومه كامتزاج الماء بالخمر .

وقوله : « فقد يهدم الإيمان ماشيد الكفر » تشخيص للإيمان والكفر بالمكنية .

وفى البيت العاشر : استعارة مكنية فى قوله : وريعان الصبا يستفزها ثم شبه محبوبته عندما تأرن بالمهر ، بعد أن استعارة لها صفة مأثورة للمهر ، وهذا التشبيه أقرب إلى طبيعة أبى فراس .

والأبيات (١١ ، ١٢ ، ١٣) يعود فيها إلى الحوار مع محبوبته ، فيشخص الهوى فى البيت (١٢) . وقوله : « ولكن الهوى للبلى جسر » تشبيه الهوى بجسر للهلاك والبلى .

وفى قوله : « وأن يدى مما علقت به صفر » كناية عن فشله فى الحب .

ويصور لوعته وحسرته بتجسيم البين والهجر ، وتجسيد أمره فى البيت السابع عشر ، ثم جعل بحثه عنها وتطلعه إليها ، كأنه ينادى ظبية مذعورة فوق مكان مرتفع ، وتكتمل الصورة فى البيت الذى يليه ، فهذه الظبية تنادى ولدا صغيرا لها عاجزا عن الجري ، وهذا خيال رائع وتصوير بديع .

وقوله : « كثير إلى نزالها النظر الشزر » كناية عن كره الأعداء له

= مظاهر الحيوية ، والشاعر الحى لا يفكر إلا فى نفسه ، وواضح أن كل بيت يمثل اتجاها ، وبيت أبى العلاء فيه كرم وسخاء وبيت أبى فراس به أثرة وأنانية فى الهوى والحب ، فالأول أفضل عند الحكماء والفلاسفة والثانى أوقع لدى أهل الفن من الشعراء .

لشدة بطشه بهم . ثم جسم النصر وجله لايخلف وعده مع كل كتيبة يقاتل بها .

والخيال والمعنى رائعان فى قوله : —

فأصدى إلى أن ترتوى البيض والقنا
وأسغب حتى يَشْبَعَ الذئب والنسر

فالشاعر يظل صديان حتى ترتوى السيوف والرماح من دماء الأعداء ، وينتقل بهذا الخيال إلى خيال آخر يظل فيه جوعان حتى تشبع الذئاب والنسور من لحوم الأعداء ، وهذه كناية جميلة فى التعبير عن شجاعته وقوة بطشه .

ومن وثبات الخيال قوله :

طلعت عليها بالردى أنا والفجر

فقد أبرز الهلاك وجعله ملموسا محسوسا ، وشخص الفجر وجعله مصاحبا له فى طلوعه على الأعداء .

وقوله : « وساحبة الأذيال » كناية عن المرأة ، وقوله :

ورحت ولم يكشف لأبياتها ستر

كناية عن مروءته وسمو أخلاقه ، ويؤخذ على الشاعر فى هذا الموقف إذعانه للمرأة واستسلامه لها بهذه الصورة حتى لو كان ذلك ادعاء ، وللمكنيات فى البيت الثامن والعشرين أثر رائع فى تأكيد المدح وإبرازه

وقوله : « ولا فرس مهر » كناية عن الخبرة فى القتال .

والبيت الخامس والثلاثون يشير إلى أن القصيدة قد قيلت بعد الأسر مباشرة .

وقوله : « على ثيابٌ من دمائهم حمر » .

كناية أيضا على شجاعته وقوته فى القتال .

وفى قوله :

سيذكرنى قومى إذا جـــد جدهم
وفى الليـلة الظلماء يفتقد البـــدر

تشبيه تمثيلى حيث شبه شدة الحاجة إليه عند الشدائد بحاجة من يمشى فى الظلام إلى ضوء يهدى .

وقوله : « جد جدهم » مجاز عقلى

وقوله : « وفى الليلة الظلماء يفقد البدر » كناية على تقدير الشىء عند الحاجة إليه .

وفى البيت الثامن والثلاثين تشبيه تمثيلى كسابقه والشطر الثانى منه كناية عن سمو قيمة بعض الناس على بعض ، كما جعل نفسه ذهبا وغيره نحاسا ، وهذان البيتان يشعران بأن قومه قد تأخروا فى مفاداته .

وقوله : « لنا الصدر دون العالمين أو القبر » . كناية عن إيثاره مع قومه العلا .

وقوله : « ومن خطب الحسناء لم يغلها المهر » . كناية عن الجرأة والإقدام .

وهكذا استعان الشاعر بالخيال ، وسخره لتصوير عاطفته وابراز آلامـــه .

وهذه الرائية التى سجل أبو فراس حروفها من دمه ودموعه مرآة صادقة لخواطره ومشاعره . فهو صادق فى غزله وفخره وآلامه ، ولقد وفق فى التعبير عمابداخله ، وكان شعره صورة صادقة لعاطفته ووجدانه .

— ٦ —

تبرز ملامح العصر من خلال هذه القصيدة وبمتابعتها يتضح ما يأتى :

١ — بداوة الخيال .

٢ — انتشار الحكمة فى شعر هذا العصر وبخاصة شعر أبى الطيب وأبى فراس ، وبالقصيدة الكثير من الحكم والأمثال .

٣ — الحرب والأسر وقتال الأعداء ومحاربة الروم (راجع البيت ١٩)

٤ — تدخل المرأة وشفاعتها فى الحروب .

٥ — خلع الثياب عند الأسر .

٦ — الالتزام بآداب الحرب .

٧ — استخدام السيوف والرماح فى الحروب .

ولا تمثل القصيدة عصرها من ناحية تعقب المحسنات البديعية ، وماجاء فيها كان عفوا غير متكلف ، ولهذا سارت القصيدة مع الركبان وتغنى بها العشاق والمطربون .

فى الرثاء لأبى العلاء المعرى

قال يرثى أباحمزة التنوخى :

— ١ —

١ — غيرُ مجدٍ فى ملتى واعتقادى
نوحُ باكٍ ، ولا ترنم شادِ
٢ — وشبيه صوت النعىِّ إذا قيـ
ـس بصوت البشير فى كل نادِ
٣ — أبكت تلكمُ الحمامة أم غنـ
ـت على فرع غصنها المياد
٤ — صاحِ هذى قبورنا تملأ الرحـ
ـب فأين القبور من عهد عاد ؟
٥ — خفف الوطء ما أظن أديم الـ
أرض إلا من هذه الأجساد
٦ — وقبيح بنا وإن قدُم العهـ
ـدُ هوانُ الآباء والأجداد

---

(١) غير مجد : غير نافع، ملتى: دينى . ترنم شاد : شدو طائر يغنى .
(٢) النعى : الذى يحمل خبر الموت . البشير : الذى يبشر بالمولود
ناد: مجتمع .
(٣) تلكم : هذه . المياد : المتمايل .
(٤) صاح : صاحبى . الرحب : المكان الرحيب الواسع . عاد :
من القبائل العربية القديمة .
(٥) خفف الوطء : سر على الأرض فى مهل، أديم الأرض : وجهها .

٧ — سِرْ إن اسطعت فى الهواء رويدا
لا اختيالاً على رُفاتِ العباد

٨ — رُبَّ لحد قد صار لحداً مراراً
ضاحكٍ من تزاحم الأضداد

٩ — ودفينٍ على بقايا دفين
فى طويل الأزمان والآباد

١٠ — تعبٌ كلها الحياةُ فما أعـ
ـجبُ إلا من راغب فى ازدياد

— ٢ —

١١ — خلق الناسُ للبقاء فضلَّت
أمةٌ يحسبونهم للنفاد

١٢ — إنما ينقلون من دار أعما
لٍ إلى دار شِقوةٍ أو رشاد

---

(٧) اسطاع يسطيع : بمعنى استطاع يستطيع يحذفون التاء استثقالا لها مع الطاء ، رويدا : على مهل . اختيالا : تعاليا ، الرفات : ما بلى من العظام .

(٨) لحد . قبر . تزاحم الأضداد : اجتماع المتناقضين كالعالم والجاهل والطويل والقصير والأبيض والأسود .

(٩) آباد جمع أبد وهو الزمن، والغالب أن تستعمل الأزمان والآباد بمعنى واحد .

(١١) أمة : المراد جماعة من الفلاسفة . النفاد : الهلاك .

(١٢) دار أعمال : الدنيا . شقوة : شقاء . دار الشقوة : النار، دار الرشاد : الجنة .

١٣ — ضَجعةُ الموت رقدة يستريح الـ
جسم فيها ، والعيش مثلُ السهاد
١٤ — أبناتِ الهديل أَسعدنَ أوعد
نَ قليل العزاء بالإسعاد
١٥ — إيهِ لله دَرُّكنّ فأنتن الـ
لواتي تُحسِن حفظ الوداد

— ٣ —

١٦ — قصد الدهر من أبي حمزة الأوّ
اب مولى حجاً ، وخِدنَ اقتصاد
١٧ — وفقيهاً أفكاره شدن للنعـ
ـمانِ مالم يَشِدْهُ شعرُ زياد

---

(١٣) الضجة : المرة الواحدة من الاضجاع . العيش : حياة الدنيا. السهاد. الأرق .

(١٤) الهديل : الذكر من الحمام . بنات الهديل : الحمام . الإسعاد : المساعدة والموافقة .

(١٥) إيه : هات وزد ، وهي تنون فتكون نكرة ، ولا تنون فتصير معرفة .

(١٦) الأواب : الذي يسبح الله نهاره إلى الليل . المولى : الصاحب . الحجا : العقل . الخدن : الصديق .

(١٨) شاد البناء . إذا رفعه ، وأشاد بذكره إذا رفع قدره .والنعمان: هو الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه وزياد هو النابغة الذبياني الذي كان يمدح النعمان بن المنذر اللخمي أمير الحيرة .

١٨ — وخطيباً لو قام بين وحوش
علم الضاريات بر النقاد

١٩ — راوياً للحديث، لم يحوج المعـ
روف من صدقه إلى الإسناد

٢٠ — أنفق العمر ناسكاً يطلب العلـ
م بكشف عن أصله وانتقاد

٢١ — ودعا أيها الحفيان ذاك الشخـ
ص إن الوداع أيسر زاد

٢٢ — واغسلاه بالدمع إن كان طهراً
وادفناه بين الحشى والفؤاد

٢٣ — واتلوا النعش بالقراءة والتسـ
بيح لا بالنحيب والتعداد

(١٨) الضاريات : السباع . النقاد : صغار الغنم .

(١٩) الإسناد : إسناد الحديث إلى راويه .

(٢٠) ناسكا : عابدا . انتقاد : نقد وتمحيص .

(٢١) ودعا : الخطاب للرجلين اللذين توليا دفنه . الحفيان : المبالغان في العناية والإهتمام .

(٢٢) الحشى : ظاهر البطن ، وهو الخصر .

(٢٣) واتلوا النعش : شيعا جنازته ، النحيب : رفع الصوت بالبكاء التعداد : تفاعل من عددت المرأة إذا عدت محاسن الميت في ندبتها عليه .

— ٤ —

٢٤ — كيف أصبحت فى محلِّك بعدى
يا جديرا منى بحسن افتقاد

٢٥ — قد أقر الطبيب عنك بعجز
وتقضّى تردّدُ العـواد

٢٦ — وانتهى اليأس منك، واستشعر الوا
جد بأن لا معادَ حتى المعاد

٢٧ — كنت خِلّ الصبا فلما أراد الـ
بين وافقت رأيه فى المـراد

٢٨ — وخلعتَ الشباب غضا فياليـ
تك أبليتَـه مع الأنـداد

٢٩ — زحلٌ أشرف الكواكب داراً
من لقاء الردى على ميعاد

٣٠ — واللبيبُ اللبيب من ليس يغترُّ بكون مصيره لفساد

---

(٢٤) الجدير : الحرى . الافتقاد : طلب الإنسان فى غيبته .
(٢٥) تقضى : انقضى . العواد : جمع عائد وهو زائر المريض .
(٢٦) انتهى اليأس : بلغ نهايته . لا معاد : لا لقاء . المعاد : يوم القيامة .
(٢٧) خل الصبا : صديق الصبا .
(٢٩) زحل : أبعد الكواكب مشتق من زحل إذا بعد .
(٣٠) اللبيب : العاقل .

— ١ —

التعريف بأبي العلاء :

بعد تسع سنوات من وفاة أبي الطيب المتنبي ولد أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان المعري التنوخي ، الشاعر ، الفيلسوف ، المؤلف ، بمعرة النعمان من شرقي الشام سنة ثلاث وستين وثلاثمائة من الهجرة . وكان أبوه من أهل الأدب ، وتولى جده قضاء المعرة ، وكانت أمه وأخواله من أسرة وجيهة تعرف بآل سبيكة ، وكانت معرة النعمان في ذلك الوقت تحت سيطرة الدولة الحمدانية ، وأميرها أبو المعالي سعد الدولة الذي كان له مع أبي فراس شأن أي شأن .

أصيب أبو العلاء في طفولته المبكرة بالجدري ، فذهب بيسرى عينيه ثم غشى اليمنى بياض ذهب بنورها ، فكف بصره وهو في الرابعة . ولقنه أبوه النحو واللغة في حداثته ، ثم أخذ شاعرنا عن علماء بلده ، وانتقل إلى حلب وأعالي الشام ، واشتهر بالذكاء والحفظ ، وكان مطبوعا على الشعر فنظمه قبل أن يتم الحادية عشرة من عمره ، وهو القائل : « ما سمعت شيئا إلا حفظته ، وما حفظت شيئا ونسيته » . و « أنا أحمد الله على العمى كما يحمده غيري على البصر » . ولما بلغ العشرين من عمره عمد إلى سائر علوم اللغة وآدابها ، واكتسبها بالمثابرة والاجتهاد حتى صار علما في الاشتهار . وكان والده قد تولى القضاء بحمص ثم توفي بها سنة خمس وتسعين وثلاثمائة .

وجد أبو العلاء أن المعرة لا تحقق له الشهرة التي يبتغيها ويسعى إليها ، فصمم على الانتقال إلى بغداد ، حتى يستزيد من العلم ويستكثر من عدد شيوخه على مألوف عصره ، فارتحل إلى بغــداد سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة ، وهو في السادسة والثلاثين من عمره .

وكانت هذه الرحلة حدا فاصلا بين شطرين من حياته، ففى بغداد نزل على شط نهر دجلة ، واطلع على فلسفة الهنود والفرس ، واتصل بالرهبان فأخذ عنهم فلسفة اليونان ، ولم تطب له الإقامة فى بغداد ، فالرجل قد وقع بينه وبين بعض علمائها خلاف فى الرأى تردى إلى خصومة عنيفة وكراهة شديدة ، وهذا ليس سببا كافيا أو مقنعا ليخرج من بلد سعى للإقامة به ، ويبدو أن اشتياقه إلى أهله وعشيرته بالمعرة دفعه إلى التفكير فيها والعودة إليها ، وليس زهدا فى بغداد بل كم تمنى لو أسعفه الزمان على المقام بها ، وربما يكون تركه لها نابعاً من عدم تزوده بالزاد الصالح والعدة الملائمة للإقامة بها والاستمرار فيها ، فغادرها سنة أربعمائة من الهجرة وعاد إلى بلده مثخنا بالجراح ليجد فى انتظاره طعنة مصمية أعدتها له الدنيا تحية لوصوله ، لقد ماتت أمه قبل أن يلقاها فرحلت عن الدار بلا وداع ، فآثر العزلة ، ولزم داره ، ثم خطف الموت أخاه الأصغر سنة أربعمائة وخمس، وتتابع الراحلون من الأهل والأحباب إلى وادى العدم ومتاهة النسيان ، واستمر هو الآخر فى عزلته ، وقرر التزهد والحرمان من كل متع الدنيا ولذاتها ، فلم يلبس إلا خشن الثياب، ولم يطعم سوى العدس والتين أى لم يأكل إلا من نبات الأرض ، وحرم على نفسه أكل لحوم الحيوان وكل ما أنتجه من اللبن والبيض ، كما حرم أكل السمك وعسل النحل ، واقتصر على النبات رحمة بالحيوانات كما يفعل النباتيون فى هذه الأيام ، ويبدو أنه اقتبس ذلك من آراء البراهمة الهنود فذهب مذهبهم رفقا بالحيوان وتجافيا عن إيلامه .

ويقال : أنه لم يكن يملك سوى دخل محدود من وقف ربما يصل إلى ثلاثين ديناراً سنوياً ، يقسمها مناصفة مع خادمة .

لقد لبث فى داره تسعا وأربعين سنة لم يبرحها إلا مرة واحدة لم تتكرر، حين حمله قومه ليشفع لهم لدى صاحب حلب الذى أغار على المعرة

ورماها بالمنجنيق ، وقبلت شفاعته ، وانصرف عن بلده المغيرون ، وعاد إلى داره وذلك بين عامى (٤١٧ — ٤١٨ هـ) ووفد عليه الأدباء والرواة ، وكانية الوزراء والعلماء ، وبقى فى منزله مكبا على التدريس والتأليف ونظم الشعر، وسمى نفسه « رهين المحبسين » محبس العمى ومحبس الدار ، وأضاف إليها سجنا ثالثا وهو سجن نفسه داخل جسمه قال :

أرانى فى الثلاثة من سجونى
فلا تسأل عن الخبر النَّبيث[1]
لفَقْدِى ناظرى ولزومِ بيتى
وكونِ النفس فى الجسم الخبيث

ولقد ألزم نفسه بسجن رابع وهو زهده الذى أمسك — من خلاله — حياته اليومية فى مطعمه وملبسه ونظام حياته ، إلى أن مات سنة تسع وأربعين وأربعمائة ، وأوصى أن يكتب على قبره :

هذا جناه أبى علىَّ وماجنيت على أحد

ووقف على قبره أربعة وثمانون شاعراً يرثونه وهو مغيب تحت الثرى ، ومنهم على بن الهُمَام الذى رثاه بقصيدة جاء فيها :

إن كُنْتَ لم تُرِقِ الدماء زهادة
فلقد أرَقْتُ اليوم من جفنى دَمَا

ولم يختلف الناس حول شاعر مثلما اختلفوا فى أبى العلاء ، لأن الرجل كان كثيراً ما يناقض نفسه ويتشاءم ويمعن فى تشاؤمه، فيكره الحياة ويؤثر العزلة ، ويزهد فيما عند الناس ، ويشكك فى الدين ويتهم بالكفر

(١) النبيث : المدفون ، الخبيث ، الرديء ، وتراب البئر إذا حفرت .

ويمتدح الرسول ، ويجادل فى نظام الكون وحكمة الخالق ، ويقبح الزواج ويعد النسل جناية ، ويرى أن المرأة لا ينبغى لها أن تتعلم غير الغزل والنسج وخدمة المنزل ، ثم يعترف بالخالق ويؤمن بالبعث . وكانت حقيقة الدين عنده أن يعمل الإنسان خيراً لا أن يكثر من الصلاة والصوم ، ولذلك كان شديد الوطأة على الفقهاء الذين يتظاهرون بالدين للارتزاق .

قال :

ويعجبنى فعلُ الذين ترهبوا
سوى أكلهم كدّ النفوس الشحائح

وقال :

يحرِّم فيكمْ الصهباء صبحاً
ويشربها على عمدٍ مساءَ

وقال :

سبحْ ، وصل ، وطفْ بمكة زائرا
سبعين لا سبعاً فلست بناسك
جهلَ الديانة مَنْ إذ عرَضتْ له
أطماعه لم يلفَ بالمتماسكِ

ويرى أن العقل هو الإمام الذى يهدى ، والذى يؤتم به فى معرفة الله ، وكانت له آراء فى الحج والميراث وبعض الحدود الشرعية والملائكة والجن والنبيا لين والحساب والثواب والعقاب ألبت عليه الكثيرين من أهل الدين واللغة ، مع أن الذين عرفوه عن قرب شهدوا له بصحة العقيدة وصدق الإيمان .

ولقد ترك أبو العلاء تراثا ضخما فى الشعر والنثر، ومن مؤلفاته :

١ — ديوان سقط الزند، وهو يشتمل على شعره أيام الشباب الذى نظمه قبل العزلة .

٢ — الدرعيات وهو ديوان صغير .

٣ — اللزوميات أو لزوم مالا يلزم، وهو ديوان كبير نظمه فى أثناء عزلته، والتزم فيه بما لايلزم فى الوزن والقافية . وضمنه كثيراً من آرائه ومعتقداته وسوء ظنه فى الحياة، ويأسه من أسباب السعادة .

٤ — الفصول والغايات، وغيرها كثير من كتب النثر كالأيك والغصون وملقى السبيل وزجر النابح، والرسائل الكثيرة والمتنوعة كرسالة الغفران ورسالة الملائكة .

كان أبو العلاء من أقطاب الأدب، لذا دخل الشعر من بعده فى طور جديد من حيث النظر فى الطبيعة والتفكير فى الخلق، وانتقل على يده من الخيال إلى الحقيقة، وقد نظم فى معظم فنون الشعر كالمدح والفخر والوصف والرثاء وغيرها .

ومما قاله فى الإشادة بعظمته والافتخار بنفسه، قوله :

وقد سار ذكرى فى البلاد فَمَنْ لهم
بإخفاء شمس ضوؤها متكاملُ

تعَدُّ ذنوبى عند قوم كثيرةً
ولا ذنب لى إلا العلا والفضائل

وإنى وإن كنت الأخيرَ زمانه
لآتٍ بما لم تستطعه الأوائل

— ٢ —

القصيدة التى نعرض لها هى مرثية أبى العلاء الشهيرة فى الفقيه الحنفى القاضى أبى حمزة ، وهو من بنى عمومته ورفاق صباه ، اتخذها مناسبة يعرض فيها آراءه فى الحياة والموت ، فأنشدها بصوت الحزين الملتاع الذى فطر الحزن قلبه ووجدانه، والقصيدة يضمها « سقط الزند » ، وهو الديوان الذى أنشأه أبو العلاء فى مطلع شبابه أى قبل أن يرحل إلى بغداد ويحبس نفسه فى المعرة ، وعندما نطالع هذا الديوان نجد الحزن والألم ينفجر من أعماقه ، سواء أكان يرثى أو يمدح أو يتغزل بل فى سائر شعره ، لأن المعرى نشأ متشائماً ، وعاش ساخطا على الحياة ، لأنها حرمته ، وضيقت عليه فى الكثير من متعها ، وأخذت منه أكثر مما أعطت له .

لقد بكى فى هذا النص وأبكى من حوله ، وحزن حزنا شديداً أذهب وقاره تذكرة لصديقه ووفاء لما كان بينهما من أواصر وصلات .

والقصيدة فى الديوان أربعة وستون بيتا أخترت منها ثلاثين، نستدل بها على مذهبه الأدبى وطريقته فى التعبير عن أفكاره وآرائه ومعانيه .

— ٣ —

الأبيات من (١ — ١٠) عن فلسفة الموت والحياة .

يبدأ أبو العلاء قصيدته بالتشاؤم، فيستوى عنده البكاء على الميت والترنم بالغناء ، فلا فائدة من الاثنين إذ لاينفع فى هذه الدنيا البكاء ولا الغناء ، ولا يختلف عنده خبر الموت عن بشارة المولود ، ومصير البشارة إلى أن تنقلب نعيا فى يوم من الأيام ، فالصوتان متشابهان ، ولايدرى إن كانت الحمامة تبكى أم تغنى على غصنها المتمايل ، ولا يعنيه أن يبحث عن الصوتين لأنهما يستويان عنده ، فالحياة لديه لاقيمة لها مادامت لاتختلف عن الموت والعدم .

ياصاحبي إن قبورنا التي تزحم الأرض سوف تفنى وتندرس كما فنيت قبور السابقين من عهد عاد، فكلنا إذن إلى انقضاء، وسر على الأرض فى مهل، لأن مانمشى فوقه على الأرض ماهو إلا بقايا أجساد الخلق التى بليت، وشكلت أديما للأرض، فأجدر بنا أن نترفق فى سيرنا على هذه الأجساد، وقبيح بنا أن نمتهن الآباء والأجداد مع قدم العهد بهم فنطأعلى أجسادهم بلا ترفق جهلا بأقدارهم، وعلينا أن ننطلق فى الهواء إن استطعنا حتى لا نؤذى الآباء والأجداد بالسير فوق أجسادهم زهوًا واختيالا .

إن القبر يجمع المتخاصمين والمتناقضين، وهو ساخرٌ من تباين أحوالهم واختلاف ألوانهم، وكيف أنه استطاع أن يجمع بينهم، بينما عجزت الدنيا عن ذلك، والموتى يتوافدون على القبر مخلفين فيه بقايا من آثارهم على مر الأزمان والدهور .

ويصل المعرى إلى نهاية رأيه وجماع فلسفته فى الحياة بأنها تعب كلها، ويعجب من رغبـــة النـاس فى زيادة العمر، والحياة كلها تعب وآلام .

الأبيات من (١١—١٥) الموت راحة وخلود .

إن الناس قد خلقوا للبقاء بعد الموت، ومن زعم أنهم قد خلقوا للفناء فقد ضل وغوى، وهذا هو المذهب الحق الذى انتقل إليه أبو العلاء بعد تشاؤمه السابق .

والموت حد فاصل بين دارين دار الدنيا وهى دار الأعمال ودار الآخرة وهى إما جنة أو نار، وبرقدة الموت يستريح الجسم من تعب الحياة التى هى سهر وأرق، ثم يمهد للحديث عن المرثى والبكاء عليه فيطلب من الحمام المساعدة فى البكاء على صديقه قليل العزاء أو وعده بهذه

المساعدة ، ويقول لبنات الهديل : أكثرن من البكاء فأنتن معروفات بحفظ الوداد .

الأبيات من (١٦ — ٢٣) فى مناقب أبى حمزة .

يبدأ فى البيت السادس عشر وما بعده فى رثاء صاحبه وتعداد مآثره فيقول : أصاب الموت أبا حمزة الرجل الورع ، صاحب العقل وصديق الاعتدال ، وحليف الاقتصاد فى الآراء ، وهو الفقيه التقى الذى أسهم فى بناء مذهب أبى حنيفة النعمان ، وشاد له مجداً يربو على ما أشاده النابغة الذبيانى للنعمان بن المنذر ، وكان أبو حمزة خطيباً لو قام بين السباع لعلمها كيف تحترم صغار الغنم فلا تتعرض لها بالافتراس ، وهو المحدث الثقة الذى لا يطلب منه إسناد ما يرويه من الأحاديث النبوية ؛ لأنه أنفق عمره عابداً زاهداً مشتغلا بالكشف عن أصول الأحاديث فلا يأخذها إلا عن أهل الثقة .

ويطلب من صاحبيه اللذين يقومان بدفن أبى حمزة أن يودعاه ، إذ لا أقل ولا أيسر من الوداع ، ويقول لهما : اسفحا الدموع بكاء عليه بمقدار ما يمكن أن تغسلاه به إذا كان الدمع طاهراً وليس كذلك ، لأنه خلط بالدم حزناً عليه ، وادفناه بين الأحشاء والقلب حفاظاً عليه من التراب ، وشيعا جنازته بقراءة القرآن والتسبيح وليس بالبكاء والنياحة .

الأبيات من (٢٤ — ٣٠) فى مناجاة أبى حمزة .

يناجى أبو العلاء صديقه فى قبره ، ويسأله عن حاله ، وكيف أصبح فى محل نزوله ، ثم يؤكد أن ما بينهما من أكيد الصداقة يقتضى أن يسأل عنه ويعتنى بأمره ، ولقد تمثله أمامه وقال له : لقد اعترف الطبيب بعجزه عن معالجتك ، لأن داء الموت لا علاج له ، وانتهى تردد

الزوار عليك ، وبلغ اليأس نهايته ، ولم يبق هناك مطمع فى بقائك ، وتأكد ابن حزن لفقدك أنه لن يلقاك حتى يوم القيامة .

ولقد كنت خليل عهد الصبا ، ولما أراد أن يزول وافقت رأيه ، وتركت الصديق على عهده وحالته ، فاخترت الموت فى شبيبتك ، فياليتك عشت وأبليت الشباب مع أقرانك .

ويصبّر أبو العلاء نفسه على فراق صديقه ، فيذكر أن زحلا مع أنه أشرف الكواكب غير آمن من الهلاك ، وأنه على موعد مع الردى ، واللبيب العاقل هو الذى لا يغتر بالدنيا ولا ينسى أن مصيره إلى زوال وفنـــاء .

مناقشة الأفكار :

الأفكار فى هذه القصيدة واضحة لا يحجبها غيم فى الألفاظ أو التواء فى الأسلوب ، وأبو العلاء يجنح فى الكثير من شعره إلى الفلسفة كما فى هذه القصيدة التى تميل أفكارها إلى التعمق ، والأبيات مرتبة ، والمعانى مترابطة تلمح فيها عقلية الفيلسوف المحنك وإحساس الشاعر الذى يصدر عن تجربة ، وعندما نقرأ الأبيات المختارة ندرك الفرق الكبير بين رثاء أبى العلاء ورثاء غيره ، فالشاعر هنا لا يقف عند تعداد صفات المرثى بل ينتهز المناسبة ليعبر عما يعتلج بصدره ويموج بخاطره ، ويأتى فى أبياته بأحكام عامة لا نشك لحظة واحدة فى أنهـا تمس صميم الحياة وتعبر عمـا فى أعماق النفوس ، وتجيب على تساؤلات كثيرة ترد على ألسنة الناس حول الموت والحيـــاة والبعث والنشور ، فأفكار القصيدة ليست وقفاً على رثاء أبى حمزة ، بل أخرجها الشاعر إلى دائرة النطاق الإنسانى العام .

والأفكار مبتكرة ومبتدعة بوجه عام لأن لأبى العلاء منهجاً خاصاً وفهماً مختلفاً للناس والحياة ، وقل أن يقلد شاعر المعرة أحداً من معاصريه أو سابقيه .

ولقد ذكر الدكتور طه حسين(١) بيتين للمتنبى أثراً فى تشاؤم أبى العلاء تأثيراً بعيداً عميقاً ، وهما :

يُدَفِّن بعضنا بعضاً ويمشى
أواخرنا على هام الأوالى
وكمْ عينٍ مقبلةِ النواحى
كحيل بالجنادل والرمال

وأبيات المعرى التى ظهر فيها التأثر بهذين البيتين هى :

صاح هذى قبورنا تملأ الرحب فأين القبور من عهد عاد
خفف الوطء ما أظن أديم الأرض إلا من هذه الأجساد
وقبيح بنا ، وإن قدم العهد هوان الآباء والأجداد

فأبو العلاء قد وظف المعنى الذى سبق إليه ، وصوره فى أروع تصوير فى هذه القصيدة التى تعد أفْضَلَ ماقاله فى الرثاء .

---

(١) راجع كتابه « مع المتنبى » ص ٢٠٨ طبعة دار المعارف .

— ٤ —

نلمح من خلال ، الألفاظ والأساليب تشاؤم أبى العلاء ونظرته القاتمة إلى الحياة ، والأحياء فهو يعمد إلى الأساليب الخبرية التى تكشف عن يأسه وتشاؤمه كقوله : غير مجد ، وشبيه صوت النعى ، أما قوله : وقبيح بنا فهو خبر يحمل معنى النصح والإرشاد ، وقوله : رب لحد قد صار لحداً مراراً ، خبر يحمل معنى السخرية بالحياة والأحياء ، وكذلك قوله : ودفين على بقايا دفين ، ونأتى إلى قوله : تعب كلها الحياة ، ليقرر رأيه فى الحياة ويهون أمرها على النفوس ، ثم يقرر رأيه فى الأحياء فى بقية البيت .

وفى قوله : خلق الناس . . . يسترد الشاعر أنفاسه وتهدأ ثورته ، ويعود إلى الدين لينقذه من القلق والحيرة مستخدماً الأسلوب الخبرى التقريرى الذى يلائم الحقائق التى يعبر عنها ، والمعنى الذى ذهب إليه أبو العلاء فى هذا البيت من حيث بقاء الأرواح خيرها وشرها بعد الموت هو المذهب الحق الذى اتفقت عليه الشرائع كلها ، ولم يقل بفناء الأرواح إلا الدهريون .

حكى عن أفلاطون أن النفس الخيرة هى التى تبقى بعد الموت ، أما النفس الشريرة فليس لها بعد الموت بقاء ، وفى قول أبى العلاء :

قصد الدهر من أبى حمزة الأوا
ب مولى حجا ، وخدن اقتصاد

تنبيه إلى صفات أبى حمزة ، ومن الصفات التى جاءت فى الأبيات التالية يرسم ويصور المعرى شخصية واضحة لصديقه .

وقوله . « وفقيها » تأكيد على مكانة المرثى فى علم الفقه ، وبيان لمنزلته فى المذهب الحنفى ، وقوله . « راويا ... البيت » فيه إيحاء إلى أن الأحاديث المرسلة أضعف من الأحاديث المسندة ، والتعبير فى : « قد أقر الطبيب عنك بعجز » للتحقيق والتأكيد ، وفى قوله : « وانتهى اليأس منك » بيان لاستسلام الشاعر وإيمانه بحكم القضاء والقدر .

والبيت : كنت خل الصبا وما بعده يكشف عن حزن أبى العلاء وتأثره بفقد صديقه . وقوله :

زحل أشرف الكواكب دارا
من لقاء الردى على ميعـــاد

دليل على إيمانه ورد على من شككوا فى عقيدته فزحل وهو من أعلى الكواكب السيارة مكانا ومنزلة غير آمن من الهلاك لقوله تعالى : « وإذا الكواكب انتثرت »(١) وقوله : « وإذا النجوم انكدرت »(٢) إذ كل شيء هالك إلا وجهه .

ولا يكتفى أبو العلاء بالأساليب الخبرية بل يلجأ أيضاً إلى الأساليب الإنشائية من أمر واستفهام ونداء للنصح أو للتعجب أو للتنبيه، فهو يسوق فكرته فى أسلوب متنوع بين الخبر والإنشاء حسبما تقتضى الفكرة . والاستفهام فى قوله : أبكت . . ؟ للتسوية بين بكاء الحمامة وغنائها فالأمران يستويان لديه .

قال توبة بن الحمير وقد جعل صوت الحمامة غناء :

---

(١) « سورة الانفطار آيه ٢ »
(٢) « سورة التكوير آية ٢ »

حمامةَ بطن الواديين ترنمى
سقاكِ من الغرّ الغوادى مطيرُها

أبينى لنا لا زال ريشك ناعما
ولا زلتِ فى خضراء غضّ نضيرها

ومن جعل صوت الحمامة نوحا عوف بن محلم الشيبانى الذى قال :

وأرقنى بالرى نوحُ حمامة
فنحتُ وذو الشجو الغريب ينوح

والاستفهام للتعجب فى قوله : فأين القبور ؟. ثم ينادى صاحبه لإثارة الانتباه نحو القبور التى تملأ الفضاء . والأمر فى خفف وسر للنصح والإرشاد ، ولبيان ما فى نفس أبى العلاء من إخلاص ووفاء .

والنداء فى قوله : أبنات الهديل : للتحسر والتوجع ، وهو ينادى ذوات الأطواق ليأسه من العقلاء . وفى قوله : كيف أصبحت فى محلك بعدى ؟ إستفهام يكشف عن إشفاقه على صاحبه ، وتذكره بعهده القديم ، فالمعرى يسوق فكرته فى أساليب تتنوع بين الإنشاء والخبر ، تعبيراً عما تحمله نفسه من وفاء لصديقه ، وكشفا وتبيانا لجو الحزن والتشاؤم .

وفى مطلع القصيدة نراه وقد استولى الضعف على نفسه فلا يحزن لصوت النعى ، ولا يفرح لصوت البشير من خلال ألفاظ لا نجد سبيلا لنقدها . وفى حديثه عن صاحبه يختار الألفاظ الموحية التى تدلك على مكانته «مولى حجا — خدن إقتصاد — فقيها — خطيبا — راويا — ناسكا ..» كما ينتقى الكلمات والأساليب التى تكشف عما كان بينهما من حب ، وتصور حزن أبى العلاء عليه (الوداع — الدمع — بالقرأة والتسبيح — بعدى — منى — عنك — منك — خل الصبا — فياليتك ... إلخ » .

ولننظر إلى المحسنات القليلة التى كشفت عن لوعة شاعر المعرة وحسرته كالطباق بين نوح باك وترنم شاد، وصوت النعى وصوت البشير، أبكت أم غنت ، البقاء والنفاد — شقوة ورشاد — رقدة والسهاد . وفى قوله :

لا معاد حتى المعاد جناس تام عبّر به أبلغ تعبير عن عدم اللقاء حتى تقوم الساعة . وهذه المحسنات تزيد المعنى قوة ودقة وتمكنا .

ولنقرأ البيت العاشر لنرى الحكمة فى تقديم الخبر « تعب » فالشاعر متشائم ، ويريد أن يؤكد تعب الحياة فلجأ إلى أسلوب القصر فقدم ماحقه التأخير قصرا للموصوف على الصفة للتخصيص ، كما قصر العجب على من يرغب فى زياده العمر، وذلك فى قوله : فما أعجب إلا من راغب فى ازدياد . قصرا للصفة على الموصوف وهو يستخدم القصر فى الأسلوبين الخبرى والإنشائى قال :

إنما ينقلون من دار أعمال .. البيت .

وقال : واتلوا النعش بالقراءة والتسبيح لا بالنحيب والتعداد .

فالألفاظ فى أبيات هذه القصيدة رقيقة ودقيقة وتفيض بالتشاؤم ، وتعبر عن جو الحزن ، وتشير إلى اعتزاز الشاعر برأيه «ملتى واعتقادى» وتكشف عن إحساسه بمعارضة الناس له .

والأساليب سهلة ولينة كأن الشاعر يغرفها من بحر ، ومتنوعة بين الخبر والإنشاء ، وموحية بالسخرية والتشاؤم، ومعبرة عن حزنه وأساه بصديق حياته .

— ٥ —

يحتاج الإقناع المنطقى والفكر الفلسفى إلى دقة الألفاظ ووضوح المعانى ، لذا كان طبيعياً أن تأتى الصور قليلة كى تنطلق نفسية أبى العلاء وعقليته فى جو الحقائق التى يتلمسها ويحاول التعبير عنها فى دقة ووضوح، ولقد اقتصد فى الخيال الشارد كما اقتصد فى الزخرف والصنعة لاهتمامه بعرض الحقائق وإبراز الأفكار ، ومع ذلك جاءت بعض الصور المعبرة عن تشاؤمه ، والموحية بجو الحزن والأسى ، فكسا الشاعر الأبيات برداء سوداوى حزين ، وهذه أهم الصور التى نعرض لها :

فى البيت الثانى شبه صوت النعى بصوت البشير ، كما شبه بكاء الحمامة بغنائها فى البيت الثالث .

وقوله : خفف الوطء فى البيت الخامس كناية عن التواضع .

وقوله فى البيت الثامن : رب لحد ضاحك استعارة مكنية شخص فيها اللحد وجعله إنسانا يضحك من تزاحم الأضداد ، وهذه الصورة الساخرة تعكس نظرته نحو الناس .

وقوله فى البيت الثانى عشر دار أعمال كناية عن الدنيا ودار شقوة أو رشاد كناية عن الآخرة .

وفى البيت الثالث عشر : شبه الموت بالنوم المريح والعيش بالسهاد ، والمقصود بالعيش الحياة ، والسهاد هو السهر المؤرق ، وهـذا التشبيه يخالف قول الرسول ﷺ : « الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا » . وربما كان المقصود بالعيش حياة البعث والنشور .

وقوله فى البيت الرابع عشر : « أبنات الهديل » تشخيص بالمكنية

حيث جعل بنات الهديل شخوصا ينادى عليها ، ويستعين بها على مصيبته ويستبكيهن لنازلته ، بعد أن يئس من وفاء الناس . ومثلها فى البيت الخامس عشر .

وفى البيت السادس عشر : استعارة مكنية فى قوله :« قصد الدهر » حيث جعل الدهر إنسانا يرمى بالسهام ، والاستعارة توحى بشدة أسفه على فراق صديقه .

وقوله : خدن إقتصاد . استعارة مكنية حيث جعل الاقتصاد إنسانا .

وفى البيت السابع عشر : استعارة مكنية فى قوله « وفقيها أفكاره شدن للنعمان » وهى تصور مذهب أبى حنيفة بناء يشاد ، وتجعل أفكار أبى حمزة شخصا يشيد ويبنى .

وفى قوله : « مالم يشده شعر زياد » استعارة مكنية أخرى .

وقوله فى البيت العشرين :« أنفق العمر » استعارة مكنية جعل فيها العمر مالا ينفق وهى تجسيم للعمر وإيحاء بقيمة الوقت وأهميته .

وقوله فى البيت الثانى والعشرين :« واغسلاه بالدمع ، وادفناه بين الحشى والفؤاد» كنايتان تعبران عن إعزازه وتقديره وشدة حزنه على أبى حمزة .

وقوله فى البيت الخامس والعشرين :« تقضى تردد العواد» كناية عن الموت وإنتهاء الأجل وفى قوله : خل الصبا استعارة مكنية شخص فيها الصبا وجعله صديقا للمرثى .

وقوله : « أراد البين» تشخيص آخر بالمكنية .

وفى البيت الثامن والعشرين: استعارة مكنية جسم فيها الشباب وأبرزه فى صورة محسوسة ، وذلك فى قوله : « وخلعت الشباب » والتعبير كناية عن الموت فى سن الشباب .

واستعار فى البيت التاسع والعشرين حالة زحل من أنه أشرف الكواكب، وأنه سيلقى الردى لحالة المرثى، حيث مات فى سن الشباب بعد أن كان دوره مبرزا فى الحديث والفقه والخطابة والعلوم .

ولم يكن أبو العلاء من الشعراء الذين يتكسبون بشعرهم أو يقرضونه تأدية لواجب أو مجاملة لصديق، بل كان غنياً بنفسه ، معتداً بذاته ، قويا بعاطفته ، صادقاً فى مشاعره .

وأبيات هذه القصيدة تؤكد عاطفته الصادقة فى حزنه وتفجعه ، ولا تخفى قوتها وتدفقها لإخلاص أبى العلاء وترفعه وصدقه .

— ٦ —

تبدو ملامح شخصية أبى العلاء ومعالم عصره من خلال هذا النص ، فهو يجنح إلى الفلسفة وتستهويه أسرار الكون والبحث فيما وراء الطبيعة، وهو إنسان متشائم يرى الحياة كلها شقاء وعناء . وتضطرب نفسه ، وتموج فى تيارات القلق، ثم لا تلبث أن تعود إلى الدين لتستلهمه ، وتجد الراحة فى رحابه فهو مؤمن بالبعث وبالجنة والنار ، وهذه هى العقيدة السليمة . وأبو العلاء وفى، مخلص لأصدقائه لا يتخذ الشعر وسيلة للتكسب وجمع الثروة، لذا كانت عاطفته صادقة تجاه شعره قوياً معبراً .

كما تبدو ملامح العصر من خلال النص ومن أبرز ذلك :

١ — الحديث عن البعث ، وعن الملحدين الذين ينكرونه (البيت الحادى عشر) .

٢ — ازدهار العلوم والاهتمام بالبحث والتمحيص كما فى الأبيات : (١٦ — ٢٠) والبيت (٢٩)

٣ — معالجة المرضى وزيارتهم (البيت الخامس والعشرون).

٤ — استعانة الشعراء ؛ بالحكمة لإبراز تجاربهم ومعارفهم بالحياة كالبيت الأخير الذى يقول فيه :

واللبيب اللبيب من ليس يغتر بكون مصيره لفساد

فى الحنين إلى مصر

للبهاء زهير

قال * :

١ — أأرحل من مصرٍ وطيب نعيمها
فأى مكان بعدها لى شائقُ؟

٢ — وأترك أوطانا ثراها لناشقٍ
هو الطيب لا ما ضمنته المفارق

٣ — وكيف وقد أضحت من الحُسْنِ جنة
زرابيها مبثوثةٌ والنمارق

(*) الديوان — طبع دار المعارف بمصر عام ١٩٨٢م تحقيق محمد أبى الفضل وطاهر الجبلاوى ص ١٨٠

١ — شائق : مشتاق ، وشاقه الشىء من باب (قال) فهو (شائق) وذلك (مشوق) .

٢ — ناشق : تشق منه ريحا طيبة أى شم ، والمفارق : جمع مفرق ، وهو الموضع الذى يتشعب منه طريق آخر ، والمقصود أمكنة الفراق (الموانىء) .

٣ — الزرابى والنمارق : الوسائد والبسط المخملة .

٦ — النوى : التحول من مكان إلى آخر (الفراق) .

١٢ — الأرائك : الأسرة، والشجو: الهم والحزن، والدجنة :الظلمة، والشارق : الشمس حين تشرق .

٤ — بلادٌ تروق العين والقلب بهجةً
وتجمع ما يهوى تقىٌّ وفاسق

٥ — وإخوانُ صدق يجمع الفضلُ شملهم
مجالسهم مما حوَوهُ حدائق

٦ — أسكانَ مصر إن قضى الله بالنوى
فثَمَّ عهودٌ بيننا ومواثق

٧ — فلا تذكروها للنسيم فإنه
لأمثالها من نفحة الروض سارقُ

٨ — إلى كم جفونى بالدموع قريحةٌ
وحتام قلبى بالتفرق خافق

٩ — ففى كل يوم لى حنين مجددٌ
وفى كل أرض لى حبيب مفارق

١٠ — ستأتى مع الأيام أعظمُ فرقةٍ
فمالى أسعى نحوها وأسابق

١١ — ومن خلق أنى ألوف وأنه
يطول التفاتى للذين أفارق

١٢ — يحرِّك طرفى فى الأرائك طائرٌ
ويبعث شجوى فى الدُّجنةِ شارق

١٣ — وأقسم ما فارقت فى الأرض منزلا
ويذكر إلا والدموع سوابق

١٤ — وعندى من الآداب فى البعد مؤنسٌ
أفارق أوطانى وليس يفارق

* * *

- ١ -

التعريف بالشاعر :

ولد أبو الفضل زهير محمد بن على بن يحيى المهلبى الأزدى فى وادى نخلة بالقرب من مكة عام ٥٨١هـ، وغلب عليه لقب (بهاء الدين)، وصار معروفا به حتى إن بعض الناس يمزجون بين لقبه واسمه فيقولون (البهاء زهير).

وقد انتقل مع أسرته فى طفولته المبكرة إلى مدينة (قوص) بالصعيد، وكانت يومها ثالثة المدن المصرية — بعد القاهرة والإسكندرية — فى المكانة، والأهمية.

وتلقى بها علومه ومعارفه، حيث كانت يومها مركزا هاما من مراكز العلم والثقافة .

امتدح بهاء الدين زهير أعيان قوص وأمراءها ، وبعد أن ذاع صيته، وطارت شهرته إلى مسامع الملوك الأيوبيين انتقل من مدينته التى شهدت نبوغه وتفوقه إلى معية المشاهير فى الدولة الأيوبية ، واسكنه ظل وفيا مخلصا لوطنه الصغير (قوص)، فكان يتغنى بها ويبثها شوقه وحبه، بل كان يتغنى بالصعيد كله ، قال :

ويرتاح قلبى للصعيد وأهله
وعيشٍ قضى لى عندكم ومقامِ

وأهوى ورود النيل من أجل أنه
يمر على قوم لدى كرامِ

كما امتدح الملك الكامل فى انتصاره بمعركة دمياط عام ٦١٨هـ، ويبدو

أن البهاء قد انتقل إلى القاهرة فى عام ٦٢١ﻫ أو بعدها بقليل[١]، حيث زادت صلته بأفراد البيت الأيوبى، وتوثقت علاقته بالملك الصالح نجم الدين أيوب، ومدحه بغرر قصائده، وبقى وفيا له أثناء نكبته، وفى المدة التى تغلب فيها الملك الناصر صاحب الكَرَك عليه ... وبعد زوال الغمة وخروج الصالح من الاعتقال عاد معه البهاء إلى مصر فى أواخر سنة ٦٣٩ﻫ وكوفىء على وفائه وإخلاصه لمليكه، فتولى رئاسة ديوان الإنشاء (فى درجة وزير)، وظل حظيا عنده إلى أن مات الصالح فى سنة ٦٤٧ﻫ.

ومما قاله فيه:

فإليك يانجمَ السماء فإننى
قد لاح نجمُ الدين لى يتألقُ
الصالحُ الملك الذى لزمانه
حُسْنٌ يتيه به الزمان ورونق
ملكٌ يحدّث عن أبيه وجده
سَند لعَمْرِكَ فى العلا لا يُلحق

وبالغ فى مدحه فقال:

سَجدتْ له حتى العيونُ مهابة
أوَ ما تراها حين يقبل تطرق[٢]

وبعد وفاة (الصالح) اعتزل (البهاء) الحياة، ولزم داره إلى عام ٦٥٦ﻫ حيث انتشر فى مصر مرض عظيم، فأصيب به، وتوفى فى ذى القعدة من السنة المذكورة.

---

(١) تاريخ الأدب العربى — عمر فروخ ﺟ ٣ ص ٥٨٧ طبع دار العلم للملايين.

(٢) الديوان ص ١٧٦

شعره :

ظفر ديوان البهاء باهتمام كبير، فتعددت طبعاته فى الكثير من البلدان، واختلف الناس فى شعره ، ولكن أكثر القول يشيد به ويثنى عليه، لما فيه من بساطة وسهولة وجريان على الروح المصرية التى تميل إلى الظرف وخفة الروح ، وقد تميز بالبديع ، وامتلأ بالأمثال والأقوال التى تدور على ألسنة الشعب ، ولذا قال المرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق عن البهاء: « لست أعرف شاعراً نفخت مصر فيه من روحها ما نفخت فى البهاء زهير، فهو مصرى فى عواطفه ، وفى ذوقه ، وفى لهجته إلى الغاية القصوى »[(١)] .

وذكر الدكتور شوقى ضيف البهاء فقال عنه : « هذا الشاعر من خير من يعبرون عن الروح المصرية فى العصر الأيوبى »[(٢)] :

وقال البهاء الشعر فى أكثر الأغراض والفنون، ولكنه تميز فى الغزل والمدح والوصف والهجاء ،وله شعر فى الحنين إلى الأوطان ،وقد تحدث بشوق إلى الحجاز حيث موطنه الأول ومسقط رأسه ،كما عبر فى العديد من القصائد عن شوقه إلى مصر وصعيدها ، واختص مدينة قوص بقدر كبير من شعره ، قال :

ولم أر مصراً مثل مصرٍ تروقنى
ولا مثلَ ما فيها من العيش والخفض

---

(١) البهاء زهير ، للدكتور عبد الفتاح شلبى ص٦٥ طبع دار المعارف بمصر ١٩٨٠م

(٢) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى د/ شوقى ضيف ص٤٩٧ طبع دار المعارف بمصر عام ١٩٧٨ م

وقال :

أيام مصر ليتهـــا فديت بأيامى البـواقى

صاغ البهاء شعره من باب (السهل الممتنع) أى بلغة عربية بسيطة يفهمها العامة ، ويقبلها الخاصة باستثناء بعض الكلمات العامية التى كان ينثرها هنا وهناك بقصد التعبير عن الواقع ، وهى سقطة لا نقره عليها ، أما أنه كان يمزج شعره بالتعابير المصرية التى لا تتعارض مع سلامة اللغة ، فهو شىء من طبعه ، وكأنه قصد به التقريب بين الفصحى والعامية، كقوله : «احسب حسابك» ، الذى ورد فى بيت له قال فيه :

احسب حسابك فى الذى تنويه من قبل الشروع

وقوله : «وحياتكم» الذى جاء فى بيته .

وحياتكم ما زلت مذ فارقتكم مترقباً أخبـــاركم متطلعـا

وقد كان البهاء مدفوعا إلى ذلك بطبيعة العصر وروحه الخفيفة ، والتى كانت صورة للحياة المصرية فى ذلك الوقت ، كما أنه لم يكن وحيداً فى هذا الاتجاه ، بل كان معه معظم شعراء عصره ، وفى مقدمتهم صديقه ورفيق حياته (ابن مطروح) وقد مال شاعرنا بهذا الطبع إلى الأوزان الخفيفة التى تتلاءم مع المعانى السهلة البسيطة ، ويذكرون أنه اخترع شـــعر (الدوبيت) وأورد الديوان شيئاً منه ، قال :

يا من لعبت به شَمُـــولٌ ما ألطف هـــذه الشمائلْ

نشوانُ يهـزه دلال كالغصن مع النسيم مائل[1]

وانطوت صفحات الشعر عند البهاء ، وكان آخر ما خطه حسب ما هو منقول، قوله :

---

(١) الديوان ص ٢١٤ .

ما قاتَ أنت ، ولاسمعتُ أنا　　هـذا حديثٌ لا يليق بنا

إن الكرامَ إذا صحبتهمُ　　ستروا القبيح وأظهروا الحسنا

— ٢ —

الجو العام للقصيدة التى بين أيدينا .

لم يذكر الديوان مناسبة محددة للقصيدة المذكورة ، وليس فى حياة البهاء من المعالم الواضحة ما يرسم لنا بعض الخطوط التى يستدل بها على هذه المناسبة ، وكل ما يمكن قوله عنها : إنها واحدة من القصائد التى قالها يعبر بها عن حنينه إلى مصر وشوقه إليها سواء أكان مرتحلا منها أو عائداً إليها ، كما لم تشتمل الأبيات على ما يستدل منه على مناسبتها ، وربما كانت القصيدة غير مرتبطة بمناسبة محددة . وهى — كما فى الديوان — تتشكل من ثلاثة وعشرين بيتاً ، وجاءت الأبيات الأربعة عشر الأولى — والتى سبق ذكرها فى الحنين إلى مصر ، أما الأبيات التسعة الأخيرة ، وهى التى لم نذكرها — فليس فيها شىء من هذا الحنين ، وإنما ساقها الشاعر متحدثاً فيها عن نفسه ، وأولها :

ولى صبوة العشاق فى الشعر وحده

وأما ســـواها فهى منىً طالقُ

فالموضوع الرئيسى للقصيدة هو الحنين إلى مصر .. ولم يكن الحنين إلى الأوطان معروفا قبل العصر العباسى — وفيه لم يقف الشعراء عند حدود الموضوعات التى عرفها القدماء ، فاختلقوا بعض الأغراض وجددوا فى بعضها الآخر ، وأبقى التقليديون منهم على النظام القديم ، سواء أكان ذلك فى الأغراض كما سبق ، أوفى الأوزان والموسيقى كما فى القصيدة التى معنا . فكان الشعراء القدامى يحنون إلى المرأة ، ويتغزلون بها ، وصار بعض المحدثين — فى ذلك العصر يحنون إلى المدن ويبثونها شوقهم ولوعتهم ،

وظهر من بينهم شعراء يرثون الحيوانات والمدن وغيرها من عالم الدواب والجماد ، وكأن هذا الحنين إلى الأوطان نوع من الوقوف الطويل على الأطلال ، أو كأنه نوع من البكاء على الديار الذى كان القدماء يستهلون به قصائدهم .

— ٣ —

شرح الأفكار :

لا ينبغي للشاعر أن يرحل من مصر لكثرة خيراتها وطيب نعيمها ، فلن يشوقه مكان بعدها ، وكيف له أن يترك هذه الأوطان التى يستنشق ترابها ، فهو الطيب وليس شيئا آخر . . ويرى أنها جنة مملوءة بالوسائد والبسط الجميلة ، وأنها تسعد العين وتبهج القلب ، وتجمع بين مايهواه التقى من دور للعلم وأماكن للعبادة ، وبين ما يهواه اللاهى من مجالس للعبث والمجون، كما يجتمع فيها شمل الإخوان والأصدقاء، وتصير مجالسهم حدائق غناء . وينادى الشاعر سكان مصر وهم إخوانه وخلانه إن قضى الله عليه بمفارقتهم بالبعد عن وطنه أن يحفظوا العهود والمواثيق التى بينه وبينهم بحيث لا يذكرون مصر للنسيم ، فلربما سرق روائحها الجميلة غيرة منها واحتياجا إليها ، ويدلل بكثرة البكاء على لوعته بالفراق حيث تقرحت جفونه ، كما خفق قلبه على حسرة البعاد ، ويتحدث عن تجربته مع الحنين المتجدد فى كل يوم ، كما أن حزنه دائم؛ لكثرة ارتحاله ومفارقته للأحباب.

وتكلم عن أعظم فرقة ، ولعله يقصد الارتحال من مصر إلى الشام مع الصالح أيوب ، وربما قصد نهاية حياته التى رأى أنه يسعى إليها ، ولعله — بذلك — يصبر نفسه على ارتحاله القصير من الديار المصرية . . وذكر أنه ألوف ولن ينسى أصدقاءه ومحبيه ، ولن ينسى وطنه ومربع صباه حيث يعجب فى مضجعه بمناظر الأطيار ، كما تبعث الشمس حزنه فى وقت الظلام ، فالهم يشمله فى الليل والنهار . . وذكر أن دموعه تنهمر فى فراقه لكل منزل

أقام فيه ، كما أن عنده من الآداب ما يأتنس به فى السفر ، وهو يفارق أوطانه ، ولكن وطنه لا يفارقه ، وهو متجسد فى وجدانه .

— ٤ —

مناقشة الأفكار :

القصيدة التى معنا من الأدب الذاتى ، وهى تجربة انصهر الشاعر فيها ، وعبر عنها بمجموعة من الأبيات التى تتجلى فيها ملامح العصر الأيوبى (فى مصر) وتجلت الذاتية فى عدد من الأبيات .. ونلاحظ أن أفكارها غير مرتبة ، فالشاعر يحن إلى وطنه ، ثم يذكر البيت أو البيتين يتكلم فيهما عن تجربة له فى غير الرحيل ، والفراق ، وكان الشاعر صادقا فى الأبيات التى لا يتحدث فيها عن الرحيل ، كما تظهر عليه ملامح التقليد فى الأبيات التى يحن فيها إلى مصر ، فلم يذكر لنا مكاناً من أمكنة لهوه ، أو مربعاً من مرابع صباه ، ونتساءل : كيف غابت عينه عن النيل وواديه الجميل فى هذا النص ، وقد قال المحدثون عن مصر كلاما يفوق ما ذكره البهاء فى قصائده الأخرى .. وتجلت ملامح التقليد فى الكلام عن الهواء والتراب والحدائق ، إذ كان الجاهليون يبكون على الأطلال منذ طفولة الشعر العربى ، قال امرؤ القيس :

عوجا على الطلل المحيل لأننا   نبكى الديار كما بكى ابن خذام

— ٥ —

الألفاظ والأساليب والموسيقى :

غلب الصدق الفنى على أبيات هذه القصيدة ، فالشاعر ينفى رغبته فى الرحيل عن مصر فى البيت الأول ، الذى بدأ كل شطر فيه باستفهام غير حقيقى ، وجعل ثراها طيباً فى البيت الثانى ، وهى مبالغة مقبولة ، ويؤكد ذلك مستعملا أسلوب القصر بلا ، وقد وضح تأثره بألفاظ القرآن الكريم فى البيت الثالث حيث قال :

. . . . زرابيها مبثوثة والنمارق

كما وفق فى الجمع بين إعجاب البصر والبصيرة فى البيت الرابع ، وأكد على إعجابه بمصر من خلال الطباق بين تق وفاسق ، وفى حديثه عن المجالس — فى البيت الخامس — خصها بإخوان الصدق ، حتى لا يتسرب إلى ذهن المتلقى أنها تشمل بعض الفساق . وقد ناجى سكان مصر فى البيت السادس بأسلوب إنشائى دال على الحب والمودة ، وبعد أن ذكر ثرى وطنه أورد النسيم فى البيت السابع ، واتضحت مبالغته فى البيت الثامن حيث قال :

إلى كم جفونى بالدموع قريحة . . . .

وتتجلى الذاتية فى قوله «كل يوم» ، و «كل أرض» ، و «لى حنين» ، و «لى حبيب» فى البيت التاسع .

ويتعجب من سعيه إلى أعظم فرقة فى البيت العاشر ، وتأتى كلمة «ألوف» بالبيت الحادى عشر ؛ لتؤكد على المبالغة التى وضحت بصور شتى فى الأبيات السابقة .

وجاء البيت الثانى عشر ، ليشهد خروج الشاعر عن طبعه فى سهولة الألفاظ ، فأورد بعض الكلمات التى لا تتلاءم مع الجو العام للقصيدة وهى «الدجنة» و «شارق» .

وتتجلى الذاتية بالبيت الأخير فى قوله : «وعندى» . وناهيك عن إيراد كلمتى «الآداب» و «الأوطان» فى صورة الجمع .

وهكذا تتميز ألفاظه وأساليبه — فى معظمها — بالسهولة واليسر ، بمثل وضوح الأفكار وبعدها عن الغرابة والتعقيد ، كما سلمت الأبيات من الكلمات العامية التى رأيناها فى بعض القصائد والمقطوعات أثناء مراجعتنا للديوان . وقد تمكن البهاء من بحر الطويل بهذا التناسق فى الألفاظ والتقسيم بين الفقرات ، ولننظر إلى قوله :

ففي كل يوم لي حنين مجدّد   وفي كل أرض لي حبيب مفارق

— ٦ —

التصوير الخيالي :

اعتمد الشاعر في هذه القصيدة على ألفاظه السهلة وعاطفته المتقدة ، واقتضت طبيعة العصر العباسي الثاني — من خلال الشعراء الأيوبيين أو غيرهم — أن يعتني بالألفاظ سواء من ناحية سهولتها أو من ناحية توشيتها بالمحسنات البديعية ، ولذلك انصرفت عناية البهاء إلى الألفاظ السهلة، وليس إلى أي شيء آخر .

وقد جاءت في القصيدة بعض الصور الخيالية التي تتلاءم مع طبيعة العصر والحياة بشتى نواحيها ، فهذه الصور وإن كانت قليلة لكنها تسهم في إيضاح المعنى بدرجة كبيرة ، فقد شبه ثراها بالطيب — في البيت الثاني . وجعلها جنة — في البيت الثالث — وصور مجالس الأصدقاء بالحدائق — في البيت الخامس — وشخص النسيم — في البيت السابع — حيث شبهه بإنسان وجعله سارقا لروائح الروض .

وفي البيت الثاني عشر استعاتان مكنيتان ، حيث شخص الطائر وجعله يحرك العيون في الشطر الأول بينما شخص الشمس وجعلها تبعث الشجو في الشطر الثاني ، كما شخص الدموع وجعلها تتسابق في البيت الثالث عشر (استعارة مكنية) .

كما شخص الوطن — على سبيل الاستعارة المكنية أيضاً ، وذلك بعدم رغبته (أي الوطن) في الفراق .

رسالة لابن العميد

فى اللوم والتهديد

— ١ —

بسطت أسرة «آل بويه» نفوذها على العراق وفارس، وتسللت إلى مقر الخلافة العباسية فى بغداد سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة فى خلافة المستكفى بالله، وجعل أحمد بن بويه من نفسه سلطانا على الشعوب الإسلامية، ولقب نفسه «معز الدولة» وأقام أخوه الحسن فى الرى ولقب نفسه «ركن الدولة» واستقر ثالثهم «على» فى شيراز ولقب نفسه هو الآخر «عماد الدولة» وهم من أسرة فارسية وأبناء أبى شجاع بويه، ولقد حكموا العالم الإسلامى باسم الخليفة العباسى وتمكنوا من القضاء على النفوذ التركى، وساموا الخلفاء والشعب والأتراك سوء العذاب، واشتهر منهم معز الدولة بن عز الدولة، وعضد الدولة بن ركن الدولة، ثم قامت الخصومات والمؤامرات بين أبناء هذه الأسرة، وأخذ نفوذ الأتراك يظهر من جديد، وتمكن السلجوقيون الأتراك من القضاء على البويهيين الفرس عام سبعة وأربعين وأربعمائة.

كان البويهيون يحبون العلم والأدب، ولا يستوزرون أو يستكتبون إلا العلماء والشعراء والكتاب، وكان أشهر أدباء عصرهم ممن يعملون فى دولتهم كابن العميد، والصاحب بن عباد، وهما من أشهر الأدباء فى القرن الرابع الهجرى.

— ٢ —

التعريف بابن العميد :

ابن العميد هو الوزير الكاتب أبو الفضل محمد بن الحسين العميد بن محمد المعروف بالأستاذ الرئيس ، وهو فارسى الأصل من مدينة « قم » الشيعية الإمامية .

كان أبوه كاتبا مترسلا بليغا ، تولى ديوان الرسائل لنوح بن نصر السامانى ملك بخارى ، ولقب بالعميد جريا على عادة أهل خراسان الذين يطلقون هذا اللقب على من يتولى لهم ديوان الرسائل .

نشأ ابنه أبو الفضل شغوفا بتحصيل العلوم العقلية واللسانية فبرع فى الحكمة والفلسفة والفلك والكتابة والشعر نبوغا جعله واحد عصره ولذا قيل : « بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد » ولما قوى واستوى بيانه ترك بخارى حيث يعمل والده ، ولحق بفارس فى ملك « آل بويه » ، وأقام فى الرى « إحدى مدن فارس » ، وخدم ركن الدولة الحسن بن بويه ، ولم يزل يترقى عنده حتى أصبح وزيره سنة ٣٢٨ هـ(١) ثم وزر لابنه عضد الدولة .

لقد ساعد ابن العميد فى تأسيس الدولة البويهية ، وخاض عدة معارك حقق فيها انتصارات عظيمة .

وتوفى فى سنة ٣٦٠ هـ وكان عمره يزيد قليلا على ستين عاما ، وقد ظل وزيرا ثلاثا وثلاثين سنة .

---

(١) كانت هذه الأسرة تحكم فى فارس قبل أن تدخل بغداد فى سنة ٣٣٤ هـ .

ولابن العميد شعر رقيق غير مجموع ، وتوجد أمثلة منه بالجزء الثالث من يتيمة الدهر للثعالبي .

واشتهر ابنه أبو الفتح ذو الكفايتين بمثل شهرته .

كان ابن العميد أستاذا قديرا وكاتبا من أعظم كتاب العربية وأرفعهم منزلة فى صناعة الكتابة ، وكان الصاحب بن عباد من بعض أتباعه .

ولقد عاد الصاحب مرة من بغداد فسأله ابن العميد عنها فقال : « بغداد فى البلاد كالأستاذ فى العباد » .

وكان بابه مفتوحا للعلماء والفلاسفة والشعراء والأدباء ، وانتقل اليه أهل الأدب من بغداد والشام ومصر . وأجزل لهم العطاء مثل المتنبي الذى وفد عليه فى أرّجان ، واستقبله استقبالا حسنا بعد صدوره عن كافور الإخشيدى ، ومدحه أبو الطيب بثلاث قصائد ، أولاها الرائية التى أولها :

بادٍ هواكَ صَبَرْتَ أو لم تصبرا
وُبكاكَ إن لم يجرِ دَمعكَ أو جَرَى

وقال عنه :

عربىٌّ لسانه فلسفى رأيُه فارسية أعيادُه

كما مدحه شعراء آخرون ومنهم ابن نباته السعدى .

وقال عنه أبو منصور الثعالبى فى اليتيمة : « والكثيرون جلسوا منه مجلس الطلاب من الأستاذ فأعجبوا به ، وجاروه ، وقلدوه واقتسموا بطابعه وجروا فى نهجه ، وقبسوا من ناره واغترفوا من بحره وساروا فى طريقه ترسما وترسلا » .

كتب أبو حيان التوحيدى عنه وعن الصاحب بن عباد كتابا سماه «مثالب الوزيرين» ، وكان يكرهمما ، ومع ذلك فقد سلم لهما ، قال : «لو أردت أن تجد مع هذا لهما ثالثا فى جميع من كتب للجبل والديلم لم تجد».

وقال عنه ابن خلكان فى كتابه «وفيات الأعيان» : كان متوسطا فى علوم الفلسفة والنجوم ، أما الأدب والترسل فلم يقاربه فيه أحد ، وكان يسمى «بالجاحظ الثانى» .

— ٣ —

تعددت ألوان الكتابة الفنية فى هذا العصر، وكان منها كتابة الرسائل.

والرسائل إما إخوانية، وهى التى تكون بين الأصدقاء، كرسائل العتاب والشوق والتعزية ، وإما ديوانية ، وهى التى تصدر عن دواوين الدولة، لتصريف شئونها ، وإقرار الحكم فيها ، ولقد كانت الحاجة ملحة لهذه الرسائل منذ أن اتسعت رقعة الدولة الإسلامية .

وكان لهذه الرسائل ديوان يسمى «ديوان الرسائل» يختار له ألمع وأبرع كتاب العصر كابن العميد إمام الإنشاء والترسل فى دولة بنى بويه والذى برع فى كتابة الرسائل بنوعيها الإخوانية والديوانية اللذين لا يختلفان من حيث الخصائص الفنية .

وهذه رسالة لابن العميد فى التهديد واللوم كتبها عن ركن الدولة الحسن بن بويه إلى ابن بلكا عند عصيانه عليه .

— ٤ —

نص الرسالة

كتابى إليك، وأنا مترجِّح[١] بين طمع فيك ويأس منك وإقبال

---

(١) مترجح : متأرجح .

عليك وإعراض عنك ، فإنك تُدل [١] بسابق حرمة وتمت [٢] بسالف خدمة ، أيسرهما يوجب رعاية ، ويقتضى محافظة وعناية ، ثم تشفعهما بحادث غلول [٣] ، وخيانة وتتبعهما بآنف [٤] خلاف ومعصية ، وأدنى ذلك يحبط [٥] أعمالك ، ويسحق كل ما يُرعَى لك .

لاجرم أنى وقفت بين ميل إليك ، وميل عليك ، أقدم رجلا لصدك ، وأوخر أخرى عن قصدك ، وأبسط يدًا لاصطلامك [٦] واجتياحك ، وأثنى ثانية لاستبقائك واستصلاحك ، وأتوقف عن امتثال [٧] بعض المأمور فيك . ضنا بالنعمة عندك ومنافسة فى الصنيعة [٨] لديك ، وتأميلا لفيئتك [٩] وانصرافك ، ورجاء لمراجعتك وانعطافك ، فقد يَعزب [١٠] العقل ثم يؤوب ويعزب اللب ثم يثوب ، ويذهب الحزمُ ثم يعود .

---

(١) الإدلال : الانبساط وفرط الثقة بالمدل عليه .

(٢) تمت : تتوسل وتتصل .

(٣) الغلول : الخيانة .

(٤) آنف : يريد به « جديد » .

(٥) يحبط : يبطل .

(٦) الاصطلام : الاستئصال والاجتياح .

(٧) الامتثال يريد به الطاعة والانقياد .

(٨) الصنيعة : الإحسان والتكريم .

(٩) لفيئتك : لرجوعك إلى الطاعة .

(١٠) يعزب : يذهب ويغيب ، ويعزب مثل يغرب .

ويَفسُدُ العزم ثم يصلح ، ويضاعُ الرأى ثم يُستدرَكُ ، ويسكرُ المرء ثم يصحو ، ويكدُرُ الماء ثم يصفو وكل ضَيقة إلى رخاء ، وكل غمرة[1] فإلى انجلاء .

وكما أنك أتيت من إساءتك بما لم تحتسبه أولياؤك ، فلا بدع أن تأتى من إحسانك بما لا ترتقبه أعداؤك ، وكما استمرت بك الغفلة حتى ركبت ما ركبت ، واخترت مااخترت ، فلا عجب أن تنتبه انتباهةً تبصر فيها قبح ما صنعت وسوء ما آثرت . وسأقيمُ على رَسمِى[2] فى الإبقاء والمماطلة ما صلحَ ، وعلى الاستيفاء[3] والمطاولة ما أمكن ، طمعاً فى إنابتك[4] وتحكيما لحسن الظن بك . فلست أعدمُ فيما أظاهره من إعذار[5] ، وأرادفُه من إنذار ، احتجاجا عليك ، واستدراجاً لك ، فإن يشأ الله يرشدك ، ويأخذ بك إلى حظك ويسددك ، فإنه على كل شىء قديرٌ وبالإجابة جدير » .

---

(١) الغمرة: التغطية بالماء كموجة البحر تغمر السابح ثم تنكشف عنه، والمراد بها هنا المرة من حدوث الشدائد والمحن .

(٢) سأقيم على رسمى : أى على ما رسمته لنفسى من إتأجيل مؤاخذتك .

(٣) الاستيفاء : التمهل والانتظار .

(٤) الإنابة : الرجوع عما هو عليه .

(٥) من إعذار : أى من عمل ينفى عذرك فى المعصية ، ويكفل الرضا عنك .

— ٥ —

الشرح الإجمالي :

يقول : أكتب هذه الرسالة إليك ، وأنا متردد بين الأمل فى التقرب منك ، واليأس فى الإقبال عليك ، أما التقرب منك فبسبب عملك القديم فى خدمتنا ، وأما الإعراض عنك فبسبب خيانتك وعدم وفائك لنا ، تلك الخيانة التى تسحق وتقضى على كل ما قدمته لنا .

وأنا متردد بين العفو عنك والنيل منك ، وكلما فكرت فى الانتقام منك فكرت أيضاً فى الإحسان إليك ، لأنى آمل أن تعود إلى رشدك ، وتراجع نفسك فربما غاب عن الإنسان وعيه وحزمه ثم عادا إليه ، بل ربما فسد العزم ثم صلح ، وضاع الأمر ثم استدرك ، مثلما يسكر المرء ثم يفيق ، ويعكر الماء ثم يصفو ويحسن ، وكل ضيق سيعقبه انفراج .

ولقد أتيت من الإساءة ما لا ينتظره أولياؤك فلا بدع أن تأتى من الإحسان ما لا ينتظره أعداؤك ، ولابد أن تراجع نفسك ، وتتنبه لما وقع منك من سوء وقبح ، وسوف أستمر فى نصحك وتبصيرك أملا فى عودتك ورغبة فى رجوعك ، وعليك أن تقوم بعمل تعتذر به عما وقع منك مع إنذارى لك واحتجاجى عليك ، وأدعو الله أن يرشدك إلى الصواب ، وأن يبصرك بالطريق السوى ، فهو على كل شيء قدير ، وبالإجابة جدير[1] .

---

(١) قاد ابن العميد جيشا وحقق به انتصاراً عظيما على ابن باكا فى شيراز سنة ٣٥٤ هـ .

— ٦ —

التحليل الفنى :

بدأ ابن العميد هذه الرسالة بدون مقدمة ، ودخل فى الموضوع مباشرة وهو التهديد واللوم ، لأن الموقف لا يحتمل المقدمات ، ثم تخلص تخلصا حسنا إلى بث الحكم والأمثال ، ثم انعطف إلى النصح والتبصير بعواقب الاندفاع والعدوان ، وختم الرسالة بالدعاء لابن بلكا متمنيا له الرشد والتوفيق . وهذا ترتيب طبيعى للأفكار وملاءمة للجو النفسى من حيث بدء الرسالة بلا مقدمات، فالحالة النفسية تقتضى أن يخرج الأديب ما به من شحنات الغضب ودفعات الكراهية ، ثم تهدأ الثورة وتضعف جذوتها ، ويستخدم العقل فتبرز الحكمة التى تكشف عن ممارسته وكثرة تجاريبه .

وفى النصح والتوعية ينبه كثيراً ويحذر قليلا بعد أن قدم من التهديد ما يكفى ، وينهى الرسالة على عادة القدماء بالدعاء .

وفى التهديد يستخدم الألفاظ التى تدل على الوعيد ، وتوحى بالرهبة، وتلائم الجو النفسى مثل: الغلول ، الخيانة ، المعصية ، ويحبط ، الاصطلام ، الاجتياح .

وفى النصح والتوعية ذكر الألفاظ الرقيقة التى توحى بالرفق واللين كقوله: «إحسانك ، الاستيفاء ، إنابتك، ورشدك...» وهذه كلمات رقيقة مهذبة بعكس ألفاظ اللوم والتهديد التى توصف بالقوة والجوالة، حتى يثير الرعب فى نفس عدوه . فكلمة (يسحق) كفيلة بأن تنغص حياة ابن بلكا لما فيها من قوة وزجر .

وهذه أهم الخصائص الفنية لأسلوب ابن العميد من خلال الرسالة السابقة:

١ — السجع : وهو توافق الفاصلة من جملتين أو أكثر فى الحرف

الأخير وحركته ، وهو لون من المحسنات اللفظية . وقد بنى ابن العميد رسالته على السجع كسائر الرسائل التى شاع ظهورها فى هذا العصر .

ومعظم السجع هنا قصير الفقرات ، وعندما تطول الفقرات يوازن بينها من حيث الطول فتأتى مقبولة مستساغة مثل قوله : —

بين طمع فيك ويأس منك .

وإقبال عليك ، وإعراض عنك .

فإنك تدل بسابق حرمة ، وتمت بسالف خدمة .

أيسرهما يوجب رعاية ، ويقتضى محافظة وعناية .

والسجع يدل على التأنق والرخاء ، وإذا تفننت صياغته كما فى هذه الرسالة أكسب المعنى قوة وروعة .

٢ — الترصيع ، وهو اتفاق الفقرتين أو أكثر مع الأخرى فى أوزانها مع اتفاق الفاصلتين فى الحرف الأخير ، وهو لون من السجع كقوله :

ويسكر المرء ثم يصحو ، ويكدر الماء ثم يصفو

وقوله: وكل ضيقة إلى رخاء ، وكل غمرة فإلى انجلاء

٣ — الطباق ، وهو يوضح المعنى ويقويه بإبراز ضده مثل : إقبال وإعراض، أقدم وأوخر ، يذهب ويعود ، يفسد ويصلح، يكدر ويصفو. والرسالة تشتمل فى معظمها على هذا المحسن البديعى الذى أجاد ابن العميد استخدامه .

٤ — الجناس ، والناقص منه بخاصة ، وهو يكسب العبارة رونقا وبهاء ، كقوله : الحزم والعزم ، يصحو ويصفو ، إعذار وإنذار .

٥ — مراعاة الإطناب مع الحرص الشديد على تأكيد المعنى وتقريره وإيثار الترادف فى الألفاظ والتراكيب لتحقيق الإيقاع الموسيقى ولنقرأ له :

لا جرم أنى وقفت بين ميل إليك وميل عنك ، أقدم رجلا لصدك ، وأؤخر أخرى عن قصدك ، ويقول : وتأميلا لفيئتك وانصرافك ، ثم يقول بعدها : ورجاء لمراجعتك وانصرافك . ويقول : فقد يغرب العقل ثم يؤوب ، وبعدها يقول : ويعزب اللب ثم يثوب .

٦ — الاهتمام بالمعنى اهتماما واضحاً ، والالتزام بوحدة الموضوع مع عدم الاستطراد ، وهذه إحدى الخصائص التى انفرد بها ابن العميد عن سابقيه .

٧ — الاستعانة بالحكمة وإبرازها فى دقة وإيجاز كقوله : —

« فقد يغرب العقل ثم يؤوب ، ويعزب اللب ثم يثوب ، ويذهب الحزم ثم يعود ، ويفسد العزم ثم يصلح ... إلخ .

ونقرأ لابن العميد فى هذه الرسالة استعانته بالأمثال وبمأثور القول اقتباسا وتضمينا .

٨ — الصور الخيالية فى هـــذه الرسالة قليلة ، وترجع قلتها إلى موضوع الرسالة ومناسبتها ، وما ورد من الخيال هنا يعبر عن نشاط وجدانى لهذا الكاتب .

فقوله : سأقيم على رسمى فى الإبقاء والمماطلة .

استعارة مكنية جعل فيها الرسم المخطط فى الذهن شيئا محوسا مجسما يقيم عليه ويلتزم به .

وقوله : تبصر فيها قبح ما صنعت : تجسيم للقبح وإبراز له .

ثم يشخص الحزم فيقول : يذهب الحزم ثم يعود .

ولم نجد فى الرسالة اقتباسا أو تضمينا لأنها رسالة قوية تشبه الإنذار الحربى ، كما خلت من الألقاب التى شاعت بين الفرس ، وانتقلت بالتالى إلى العرب .

كان ابن العميد حريصا فى رسالته على دقة الألفاظ حريصا على بسط المعنى والاهتمام به وتوضيحه .

وهو مترف عاش فى أحضان الفرس ، وتعامل مع أعظم وأكبر القبائل فيهم فانعكس ذلك على أسلوبه وطريقته فى الكتابة والتعبير .

فن المقامات

التعريف بالمقامة :

قال ابن منظور صاحب لسان العرب : « والمقامة ، بالفتح : المجلس، والجماعة من الناس » أى أن مقامات الناس مجالسهم ، واستعملت الكلمة مجازا لتعنى القوم يجلسون فى المجلس ، حتى أصبحت تطلق لتشمل ألوانا من القصص والمواعظ والأحاديث، والتى تلقى على جماعة من الناس بقصد النصح والوعظ والإرشاد، أو بغرض الثقافة العامة ، ولكن المقامة التى عرفناها عند بديع الزمان ومن جاء بعده تأخذ قالبا إبداعيا ، فهى فى هذا الإطار قصة أو حكاية قصيرة : « أنيقة الأسلوب تشتمل على عظة أو ملحة »[1] .

ولا بد أن تشتمل هذه الحكاية على حادثة لا تستغرق أكثر من مقامة (جلسة) على أن تصاغ بأسلوب أنيق يجمع شوارد اللغة ونوادر التراكيب ، علما بأن المقامة قلما تزيد عن ثلاث صفحات من القطع المتوسط .

وتبنى المقامة على حادث بسيط ينهض به شخص محدد ، وهو الذى يعرف فى العصر الحديث بالبطل مثل أبى الفتح الإسكندرى عند بديع الزمان الهمذانى ، ومثل أبى زيد السروجى عند أبى القاسم الحريرى .

والبطل فى المقامة شخص مُكْدٍ (متسول أو محتال) يتخذ من الحيلة والخداع والمراوغة وسيلة لعيشه وحياته .

وينهض الراوى وهو الشخصية الثانية فى المقامة بسرد الأحداث

---

(١) تاريخ الأدب العربى — أحمد حسن الزيات ص ٣٩٨

وإعطاء صورة شاملة للبطل، لما بينهما من صلة حميمة ومعرفة قديمة، وإن كان الراوى غالبا شخصا مترفاً، رافلا فى ملابس العز والنعيم، والراوى عند الهمذانى هو (عيسى بن هشام) وعند الحريرى (الحارث بن همام)، ومكانة الراوية فى القصص الشعبى مهمة جدا، « لأنها تشيع جوا واقعيا يمتزج بمسحة (رومانسية) هى التى تمنح هذا اللون من الأدب حلاوته وجماله »(١).

نشأة المقامة :

تعود نشأة المقامة إلى بديع الزمان الهمذانى الذى استفاد كثيرا بما كتب قبله، كأحاديث ابن دريد و كتابات أبى على القالى وغيرها على أن مقامات الهمذانى خير دليل على جهده ونبوغه وتفوقه، وعلى ابتكاره لهذا اللون القصصى الذى لم يسبق إليه، وقد ابتكر البديع أربعمائة مقامة ضاع معظمها، ولم يعثر إلا على ثلاث وخمسين مما كتبه فى هذا الفن.

أما موضوع المقامة عند الهمذانى فلا يخرج عن الكدية والأدب والنقد والألغاز والمواعظ والأخلاق والسلوك الإنسانى والقصص والنوادر، فالرجل قد قصد إلى إبراز الظواهر الاجتماعية والنفسية فى المجتمع العباسى فى القرن الرابع الهجرى إبان حياته، وهذه الموضوعات فى مجموعها ترسم صورة شاملة للبيئة فى ذلك العصر.

وقد شهد القرن الرابع ألوانا متعددة من التمازج بين الثقافات المختلفة التى وفدت إلى اللغة العربية، فلا يخفى علينا ما دخل إلى لغة الضاد من اللغات الأخرى كاليونانية والرومانية والهندية والصينية والفارسية.

---

(١) فن المقامات، د / يوسف نور عوض ص ١١٧ طبعة دار القلم، بيروت طبعة أولى عام ١٩٧٩ م.

وكان البديع ممن تثقفوا بالثقافات العربية والفارسية ، وعاش حياته فى قلق ويأس وحيرة واضطراب ، ولكل هذه العوامل وغيرها نشأت المقامة على يديه ، واستوت على عودها بفضل أسلوبه الرصين ، وقوة بيانه ورحابة خياله ، وسعة أفقه وتمكنه من اللغة العربية تمكنا لا يتأتى إلا للقليل من الناس .

نبذة عن بديع الزمان :

بديع الزمان هو أبو الفضل أحمد بن الحسين الملقب ببديع الزمان ، ولد بهمذان فى بداية النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى ، ونشأ بها ، وهو عربى الأصل حيث قال فى إحدى رسائله إلى الشيخ ابن أحمد الإسفراييني « إنى عبد الشيخ واسمى أحمد ، وهمذان المولد وتغلب المورد ومضر المحتد » وجاء فى رسالة كتبها لأستاذه أحمد بن فارس : « وأنا وإن لم أكن خراسانى الطينة فإنى خراسانى المدينة ، والمرء من حيث يوجد لا من حيث يولد ، والإنسان من حيث ينبت لا من حيث يثبت » .

و « يرجح بأنه كان من عرب الحجاز الذين هاجروا مع بداية الفتح ، وظلوا على ما كانوا عليه من صفاء العقيدة »[1] .

وبعد أن تلقى البديع علومه على أكثر مشايخ همذان ترك هذه المدينة على غير رغبة أبيه إلى حضرة الصاحب بن عباد فى عام ٣٨٠ هـ ثم اتجه إلى جرجان ، وأقام بها مدة ، وذهب إلى نيسابور فى العام نفسه ، وقد طالت إقامته بها ، وتجلت عبقريته فيها ، وذاعت شهرته فى سائر ضواحيها ، كما جرت بينه وبين الخوارزمى مكاتبات أعقبتها مناظرات تفوق فيها البديع ، وطار ذكره ، وارتفع قدره ، وإن كانت حالته لم تتحسن بالقدر الذى

(١) المرجع السابق ص ٤٥ ، ص ٤٦

يتساوى مع مكانته ومنزلته ، فأخذ يتنقل من مدن خراسان ، حتى استقر فى (هرات) وصار أحد وجهائها فابتسمت له الحياة ، ولكن الابتسامة لم تلبث أن انطفأت بوفاته بعد أن بلغ الأربعين أو جاوزها بقليل فى عام ٣٩٨ هـ .

ولنقرأ ما كتبه الأستاذ أحمد حسن الزيات عن ملابسات موت البديع قال : « واختلف فى موته، فقيل مات مسموما ، وقيل مات بالسكتة وعجل بدفنه فأفاق فى جدثه ، وسمع صوته بالليل فنبشوا عليه ، فوجدوه قد مات قابضا على لحيته من هول القبر »(١) .

وقد عاش البديع حياة قلقة مضطربة ، فلم يستقر به المقام ببلد حتى يرحل إلى غيره ، وكان حزينا مبتئساً لقلة حيلته وعروبته بين كثير من العجم ، وانحيازه إلى مذهب أهل السنة فى مجتمع تسيطر عليه الشيعة ، وإن كانت مدة إقامته بنيسابور تمثل مرحلة النضج والإبداع بالنسبة له، فقد كتب فيها مقاماته التى ضاع معظمها ، ولم يبق منها إلا القليل فضلاً عن ديوانه فى الرسائل وديوانه فى الشعر وكلاهما مطبوع ، ويحسن بعد هذا العرض أن نقدم نموذجا من مقاماته كى نتعرف على هذا الفن ، وعلى أسلوب البديع وطريقته فى كتابة المقامات .

المقامة الحِرْزِيّة

لبديع الزمان الهمذانى

حدثنا عيسى بن هشام قال :

لما بَلغَتْ بى الغربة باب الأبواب(٢) ، ورضيت من الغنيمة بالإياب

(١) تاريخ الأدب العربى ص ٢٤٢

(٢) أحد ثغور بحر الخزر .

ودونه من البحر وثاب بغاربه(١)، ومن السفن عساف براكبه، استخرت الله فى القفول(٢)، وقعدت من الفلك بمثابة الهلك(٣)، ولما ملكنا البحر وجن علينا الليل غشيتنا سحابة تمد من الأمطار حبالا، وتحدو(٤) من الغيم جبالا بريح ترسل الأمواج أزواجا والأمطار أفواجا، وبقينا فى يد الحين(٥) بين البحرين، لا نملك عدة غير الدعاء، ولا حيلة إلا البكاء، ولا عصمة غير الرجاء، وطويناها ليلة نابغية(٦) وأصبحنا نتباكى ونتشاكى، وفينا رجل لا يخضل جفنه، ولا تبتل عينه، رخى الصدر منشرحه، نشيط القلب فرحه، فعجبنا والله كل العجب، وقلنا له: ما الذى أمنك من العطب، فقال: حرز لا يغرق صاحبه، ولو شئت أن أمنح كلا منكم حرزا لفعلت، فكل رغب إليه، وألح فى المسألة عليه، فقال: لن أفعل ذلك حتى يعطينى كل واحد منكم دينارا الآن، ويعدنى دينارا إذا سلم.

قال عيسى بن هشام: فنقدناه ما طلب، ووعدناه ما خطب، وأبت يده إلى جيبه، فأخرج قطعة ديباج فيها حقة عاج(٨)، قد ضمن صدرها رقاعا، وحذف كل واحد منا بواحدة منها، فلما سلمت السفينة وأحلتنا المدينة، اقتضى الناس ما وعدوه فنقدوه، وانتهى الأمر إلى فقال: دعوه، فقلت: لك ذلك بعد أن تعلمنى سر حالك قال: أنا من بلاد الإسكندرية، فقلت: كيف نصرك الصبر وخذلنا، فأنشأ يقول:

---

(١) الغارب: أصله الكاهل وهو هنا أعلى الموج.
(٢) القفول: الرجوع. (٣) الهلك: الهلاك.
(٤) تحدو: تسوق. (٥) الحين الهلاك.
(٦) نسبة إلى النابغة الذبيانى وهو أكثر من وصف الليل بالطول.
(٧) العطب: التلف والهلاك.
(٨) حقة: وعاء صغير، والعاج: سن الفيل.

وَيْنكَ لولا الصبرُ ما كُنْـ ـتُ ملأت الكيس تِبرًا
لن ينال المجدَ من ضا ق بما يغشاه صدرا (١)
ثم ما أعقبنى السا عةُ ما أعطيت ضَرا (٢)
بل به أشتد أزرا وبه أجْبرُ كسرا (٣)
ولو أنى اليوم فى الغرْ ق لما كلفتُ عذْرًا (٤)

إن المقامة السابقة تكشف للقارىء عن خصائص المقامات وطبائع أسلوبها، كما تكشف أيضا عن دور البطل فيها.

أما السجع الذى بنيت عليه الفواصل فكان جميلا رائعا خاصة وأن الفقرات جاءت قصيرة متساوية.

أما الخيال فكان جميلا أيضا، وغير مبالغ فيه وانظر إلى قوله: « كيف نصرك الصبر وخذلنا »؟ حيث شخص الصبر وجعله إنسانا، وأسند إليه بعض خصائص المشبه به على سبيل الاستعارة المكنية.

وقد أحسن البديع فى قفل هذه الاستعارة بالشعر الذى جاء بمثابة الحل للعقدة الدرامية.

---

(١) ما يغشاه: ما ينزل به من الحوادث.
(٢) أعقبنى: أورثنى، والضر (بفتح الضاد) ضد النفع.
(٣) الأزر: القوة. (٤) العذر: الاعتذار.

القسم الثانى

من روائع الأدب العربى فى العصر الأندلسى
(من الغزل العفيف)

نونية ابن زيدون

يقول فيها :

— ١ —

١ — أضحى التنائى بديلا من تدانينا
وناب عن طيبِ لقيانا تجافينا

٢ — ألا ، وقد حان صبح البين، صبَّحَنا
حَينٌ فقام بنا للحين ناعينا

٣ — مَنْ مُبلغُ المُلبِسينا بانتزاحِهمُ
حزناً مع الدهر لا يبلى ويُبلينا :

٤ — أن الزمان الذى مازال يُضحكنا
أنساً بقربهمُ قد عاد يبكينا ؟

٥ — غِيظ العدا من تساقينا الهوى فَدَعَوْا
بأن نغصَّ فقال الدهر آمينا

---

(١) التنائى : التباعد ، تدانينا : تقاربنا ، تجافينا : فراقنا .
(٢) ألا : هلا ، حان: قرب ، البين: الفراق ، الحين: الهلاك،الناعى: الذى يعلن خبر الوفاة .
(٣) ألبس — بمعنى كسا ، يبلى : يفنى .
(٥) نغص : يقال: غص بالماء : أى وقف فى حلقه ، أو شرق به .

٦ — فانحل ما كان معقوداً بأنفسنا
وانبتَّ ما كان موصولا بأيدينا

٧ — وقد نكون وما يخشى تفرقنا
فاليوم نحن وما يُرجى تلاقينا

٨ — ياليت شعري ولم نعتب أعاديكم
هل نال حظا من العتبى أعادينا

٩ — لم نعتقد بعدكمْ إلا الوفاء لكم
رأيا ، ولم نتقلد غيره دينا

١٠ — ما حقنا أن تُقروا عين ذى حسد
بنا ، ولا أن تسرُّوا كاشحاً فينا

١٢ — كنا نرى اليأس تُسلينا عوارضه
وقد يئسنا فما لليأس يغرينا

١٢ — بنتمْ وبنا فما ابتلت جوانحنا
شوقاً إليكم ولا جفتْ مآقينا

---

(٦) انبت : انقطع .
(٨) العَتْب : الموجدة واللوم ، العتبى : الرضا بعد السخط .
(١٠) الكاشح : العدو المبغض المضمر للعداوة : تقروا : تسعدوا .
(١١) عوارضه : ظواهره ، أوبوادره ، يغرينا : يحيينا من أغرى يغرى ومنه غَرِى أى أولع به .
(١٢) بنتم وبنا : ابتعدتم وابتعدنا ، الجوانح : الضلوع ، جمع جانحة والمراد ما تضمه من القلب والحشا الملتهب بالحب .
مآقينا : جمع ماق وهو مجرى الدمع من العين ، أو مقدم العين

١٣ — نكاد حين تناجيكم ضمائرنا
يقضى علينا الأسى لولا تأسّينا

١٤ — حالتْ لفقدكمُ أيامُنا فغدت
سودا وكانت بكم بيضاً ليالينا

١٥ — إذ جانب العيش طلقٌ من تألفنا
ومربع اللهو صافٍ من تصافينا

١٦ — وإذ هصرنا فنون الوصل دانيةً
قطوفه فجنينـــا منه ما شينا

١٧ — ليسقَ عهدكمُ عهدُ السرور فما
كنتم لأرواحنا إلا رياحينا

= أو مؤخرها والمراد بقوله : ولاجفت مآقينا : أى ولا جفت عيوننا من الدمع والبكاء عليكم .

(١٣) تأسينا : تعزينا وتصبرنا ، والأسى : الحزن ، تناجيكم : تحدثكم همسا .

(١٤) حالت : تغيرت من أبيض إلى أسود ، عدت : أصبحت .

(١٥) طلق : منبسط ، تألفنا : لقائنا : المربع : منزل القوم فى الربيع خاصة .

(١٦) هصرنا : جذبنا وثنينا ، فنون : جمع فن وهو الغصن الملتف وفنون الوصل : أنواعه وألوانه ، دانية : قريبة ، قطوفه : ثماره ماشينا : ما شئنا .

١٨ — لا تحسبوا نأيَكم عنا يغيرنا
إذ طالما غيرّ اليأسُ المحبينا

١٩ — والله ماطلبت أرواحنا بدلا
منكم ولا انصرفت عنكم أمانينا

— ٤ —

٢٠ — ياساريَ البرق، غادِ القصرَ فاسقِ به
من كان صِرفَ الهوى والود يسقينا

٢١ — وأسأل هنالك : هل عنى تذكرُنا
إلفاً ، تذكره أمسى يعنينا ؟

٢٢ — ويا نسيم الصبَا بلغ تحيتنا
مَنْ لو على البعد حيا كان يحيينا

٢٣ — فهل أرى الدهر يقضينا مساعفةً
منه ، وإن لم يكن غبًّا تقاضينا ؟

---

(١٨) نأيكم : بعدكم ، طالما : كثيراً .

(٢٠) البرق السارى : المنطلق ، غاد القصر : بكر إليه واسقه فى أول النهار ، صرف الهوى : خالص الهوى .

(٢١) عنى : أتعب وأضنى .

(٢٢) الصبا : ريح لطيفة تهب من المشرق .

(٢٣) غبا : زيارة بعد عدة أيام .

— ٤ —

٢٤ — رَبيبُ مُلكٍ كأن الله أنشأه
مسكا وقدر إنشاءَ الورى طينا

٢٥ — أو صاغه وَرِقًا محضاً ، وتوجهُ
من ناصع التبر إبداعاً وتحسينا

٢٦ — إذا تأوَّدَ آدته رفاهيةً
تومُ العقود وأدمته البُرَى لينا

٢٧ — كانت له الشمس ظِئْرًا فى أكِلتهِ
بل ما تجلى لها إلا أحايينا

٢٨ — كأنما أثبتَ فى صحن وجنته
زهرُ الكواكب تعويذاً وتزْيينا

٢٩ — ما ضرَّ إن لم نكن أكفاءه شرفاً
وفى المودةِ كافٍ من تكافينا

---

(٢٤) الورى : الناس .

(٢٥) الورق : الدراهم الفضية ، محضا : خالصا .

(٢٦) تأود : تثنى وتمايل ، آدته : أثقلته ، توم العقود : عقود مودوجة من اللؤلؤ ، وتوم : تؤم ومفردها توأم ، والبرى الخلاخيل جمع بره ، أدمته : جرحته.

(٢٧) الظئر : الحاضنة المرضعة ، أكلته : جمع كِلة وهى نسيج رقيق للوقاية من البعوض « ستارة » .

(٢٨) زهر الكواكب : النيرة المشرقة « جمع أزهر » ، تعويذا : رقية تمنع الحسد .

٣٠ — ياروضةً طالما أجنت لواحظنا
وَرداً جلاه الصِّبا غضاً ونسرينا

٣١ — وياحياةً تملينا بزهرتها
منىً ضروبا ولذاتٍ أفانينا

٣٢ — ويانعيماً خطرنا من غضارته
فى وشى نُعمى سحبنا ذيله حينا

٣٣ — لسنا نسميك إجلالا وتكرمة
فقدرُك المعتلى عن ذاكَ يغنينا

٣٤ — إذا انفردتِ وما شوركت فى صفة
فحسبنا الوصف إيضاحاً وتبيينا

٣٥ — ياجنة الخلد أبدلنا بسلسلها
والكوثرِ العذب زقوما وغسلينا

---

(٣٠) أجنت لواحظنا : جعلتها تجنى وتقطف، جلاه: كشفه، النسرين زهر طيب الرائحة.

(٣١) تملينا : تمتعنا ، ضروبا : صنوفا ، أفانينا : أنواعا .

(٣٢) خطر فى مشيته : اهتز وتبختر : الغضارة : السعة والخصب ، الوشى : نوع من الثياب الحريرية المنقوشة ، النعمى : النعمة والنعماء .

(٣٥) السلسل : الماء العذب ، البارد ، الكوثر : نهر ، والكثير من كل شيء ، الزقوم : شجرة فى جهنم فيها طعام أهل النار الغسلين : الشديد الحر ، وشجر بجهنم ، ومايسيل من جلود أهل النار .

٣٦ — كأننا لم نبتْ والوصلُ ثالثنا
والسعد قد غَضَّ من أجفان واشينا

٣٧ — سِرّانِ في خاطر الظلماء يكتمنا
حتى يكاد لسانُ الصبح يفشينا

٣٨ — لاغروَ في أن ذكرنا الحزن حين نهت
عنه النهى وتركنا الصبر ناسينا

— ٥ —

٣٩ — إنا قرأنا الأسى يوم النوى سوراً
مكتوبة وأخذنا الصبر تلقينا

٤٠ — أما هواكِ فلم نَعدِل بمنهله
شِرْباً وإن كان يُروينا فيُظمينا

٤١ — لم نجفُ أفق جمال أنتِ كوكبه
سالين عنه ، ولم نهجره قالينا

٤٢ — ولا اختياراً تجنبناه عن كَثَبٍ
لكن عدتنا — على كره — عوادينا

---

(٣٦) غض : أغمض .

(٣٧) يفشينا : يفضحنا ويشي بنا ويعرضنا للأنظار.

(٣٨) لاغرو : لاعجب ، النهى : العقول .

(٣٩) تلقينا : تفهيما .

(٤٠) الشرب : المورد العذب الماء .

(٤١) لم نجف : لم نفارقه ونبتعد عنه كراهية : وقالين : كارهين .

(٤٢) عن كثب : عن قرب . عدتنا العوادى : أى صرفتنا وشغلتنا أحداث الدهر وصروفه .

٤٣ — نأسى عليك إذا حُثت مشعشعةً
فينا الشَّمُولُ وغنانا مغنينا

٤٤ — لا أكؤسُ الراح تبدى من شمائلنا
سيما ارتياح ولا الأوتار تلهينا

٤٥ — دومى على العهد — مادمنا — محافظةً
فالحر من دان إنصافًا كما دينا

٤٦ — فما استعضنا خليلا منكِ يحبسنا
ولا استفدنا حبيبا عنك يُثنينا

٤٧ — ولو صبا نحونا من عُلْو مطلعه
بدرُ الدجى لم يكن حاشاكِ يُصبينا

٤٨ — أولى وفاء وإن لم تبذلى صلة
فالطيفُ يَقنعنا والذكر يكفينا

---

(٤٣) مشعشعة : ممزوجة ، الشمول : الخمر ؛ وحث بمعنى رد ، وزنا ومعنى .

(٤٤) أكؤس : مفردها كأس ، الشمائل : الخُلق.

(٤٥) دام : خضع لغيره ، إنصافا : عدلا ، كما دين : كما خضع .

(٤٦) استعضنا : استبدلنا ، يثنينا : يردنا ويصرفنا.

(٤٧) صبا : مال ، يصبينا : يثير صبوتنا ، ويبعث أشواقنا ويجعلنا نعمل عمل الصبيان .

(٤٨) صلة : وصلا ولقاء . يقنعنا : يكفينا ، الطيف : الخيال .

٤٩ — وفى الجواب متاعٌ إن شفعتَ به
بيضَ الأيادى التى مازلت تُولينا

— ١ —

التعريف بشاعر الأندلس ابن زيدون :

دام الحكم العربى بالأندلس ثمانية قرون نهضت فيها الحضارة الإسلامية ، وكانت قرطبة وأشبيلية وغيرها من سائر المدن تنافس بغداد ودمشق والقاهرة ، ومن الأندلس خرجت أنوار العلم لتضيىء ظلام الغرب ، وتحرك القلوب والعقول إلى كل جديد فى عالم الأدب والفكر .

ولقد تنبه الأوربيون للحضارة الجديدة ، فتأثروا بها واستفادوا منها .

أما الأندلس فكانت أيكة وارفة الظلال ، انتقل الأمر فيها من الأمويين إلى ملوك الطوائف سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة من الهجرة الذين قسموا البلاد إلى ولايات ، وتغلب كل ملك منهم على بلد فساء الأمر ، وانتقل الحكم إلى المرابطين والموحدين وبنى الأحمر فى سنة أربع وثمانين وأربعمائة . ولكن مالبثت الريح الأخيرة أن هبت هبتها الأخيرة فانطوى بساط العرب فى هذه البلاد . وذلك فى سنة ٨٩٧ هـ .

---

(٤٩) المتاع : السلعة ، والمنفعة ، وماتمتعت به ، والأخير هو المقصود هنا ، أولى ، أعطى وامنحى والشفع ضد الوتر .

وفى القرن الخامس الهجرى الذى شغلت فيه هذه البلاد بحكم ملوك الطوائف عاش ابن زيدون وهو أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن أحمد ابن عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون المخزومى الأندلسى القرطبى الملقب بذى الوزارتين .

ولد فى حى الرُصافة بقرطبة سنة أربع وتسعين وثلاثمائة فى بيت علم وأدب وثراء ، وكان أبوه من كبار قضاة قرطبة فنشأ ابن زيدون الذى كان وحيداً لأبيه كما ينشأ أبناء أهـــل الترف والنعيم ، فتيسر له التعليم المبكر والدراسة الجادة على أيدى علماء أجلاء وأدباء فضلاء ، فحفظ القرآن الكريم ودرس اللغة والأدب وتعلم النحو والصرف ، وأصبح ضليعاً متمكناً يحضر الندوات الأدبية ، ويلتقى بالشعراء والكتاب ، ويشارك بالرأى فى أحداث العصر ، واتصل بأبى الحزم بن جَهوَر أحد ملوك الطوائف بالأندلس والذى تولى زمام الحكم بقرطبة سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة بعد سقوط الخلافة الأموية بها ، وعمل ابن زيدون عنده كاتباً مختصاً بشئون أهل الذمة ثم توثقت الصلة بين الرجلين وصار معها شاعراً ووزيراً لابن جهور .

وكان لابن زيدون صديقان يلتقى بهما ، ويفضى بسره لهما وهما ابن ذَكوان وهو من أعلام القضاء فى عصره والوليد بن جهور ولى العهد وربيب الملك ، كما تعرف الشاعر من خلال ندوات الشعر والنثر على ولادة بنت المستكفى ، وهى زهرة من زهرات البيت الأموى ، وابنة الخليفة محمد بن عبد الرحمن الملقب بالمستكفى بالله ، وكانت أديبة متذوقة وشاعرة متحررة تعقد الندوات بقصرها ، فتجمع فيه العظماء والأدباء ، ولقد توثقت الصلة بينها وبين ابن زيدون بعد أن تولى منصب الوزارة ، فأحبها وتعلق بها وبادلته حباً بحب فكانا يتراسلان بقصائد الشوق والحنين ، وتناقلت ألسنة أهل قرطبة هذا الحب ، ونافس الوزير أبو عامر بن عبدوس

أحمد بن زيدون فى حب ولادة وأخذ هو الآخر يتودد إليها ويستميلها ويتقرب منها ونهض لتأليب ابن جهور على ابن زيدون، فقذف به فى السجن سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة ، ومن السجن يرسل شكواه فلا يلتفت إليه أحد ، وتساعده ولادة فى الهروب من السجن بعد ما يقرب من سنة ونصف قضاها بين جدرانه ، وأرسل فيها أشعاره إلى حبيبته ولادة ثم اختفى بقرطبة ، وقبض عليه فى الوقت الذى توفى فيه أبو الحزم ابن جهور فعاد إلى صديقه القديم أبى الوليد بن جهور الذى كان وليا للعهد ، وأصبح ملكا على قرطبة وتبدلت حالة ابن زيدون وعاد إلى سابق مكانته ومنزلته ، ولكن والدسائس تلاحقه فينقلب عليه الوليد فيضطر ابن زيدون للفرار من قرطبة والهرب إلى المعتضد ابن عباد حاكم أشبيلية سنة إحدى وأربعين وأربعمائة الذى أكرمه وأحسن إليه ، وخلع عليه منصب الوزارة ، وعاش فى كنفه عظيم الجاه ، مسموع الكلمة ، نافذ الرأى ، ولم تكتمل سعادته بسبب بعده عن ولادة التى أعاقها ابن جهور ولم يسمح لها بأن تلحق بابن زيدون ، فعاشت بقرطبة تعانى آلام البعد ، وتقاوم دسائس ابن عبدوس ، وتطير الأنباء الكاذبة إلى ابن زيدون وتسوء العلاقة بين العاشقين .

ولقد غضب شاعرنا من حبيبته وثار عليها وطعنها فى كرامتها وشوه سمعتها ، واضطرت إلى الانكماش فى قصرها تتقى حصائد الألسنة وتجتر ذكريات الماضى ، وتأسى لحاضرها فتذوى مع الأيام جمالها .

وبعد أن مات المعتضد بن عباد سنة إحدى وستين وأربعمائة وزر ابن زيدون لابنه المعتمد الذى كان شاعراً شابا فى الثلاثين من عمره فأعلى مقام شاعر أبيه وتم له الاستيلاء على قرطبة فى السنة الثانية من حكمه وذلك بعد وفاة الوليد بن جهور وتفكك أولاده من بعده ويعود ابن زيدون مع المعتمد إلى قرطبة فيلتقى بولادة ولكن بعد فوات الأوان فكان قد

أشرف على السبعين وأعتلت صحته ، وقد جاوزت هى الأخرى الثمانين ولا زالت عانسا ، وكانت جذوة الحب قد انطفأت من قلبيهما ، وتثور فى أشبيليه فتنة طائفية بين أهل الذمة فيرسل المعتمد بن عباد وزيره ابن زيدون لتهدئتها لما له من مكانة فى نفوس الأشبيليين . وعندما يصل إليها ويمضى بها عدة أشهر يصاب بالحمى ، ويلاقى ربه سنة ثلاث وستين وأربعمائه بعد أن قضى شطرا من حياته بعيداً عن أهله وأحبابه[1] .

دخل ابن زيدون مجال الأدب من أوسع أبوابه فكان شاعراً مجيداً وكاتباً مفلقا وطار ذكره إلى الشرق ، وتغنت بأدبه القرطبيات ، حتى لقد قال بعض الأدباء : « من لبس البياض ، وتختم بالعقيق ، وقرأ لأبى عمرو ، وتفقه للشافعى وروى شعر ابن زيدون فقد استكمل الـظَّـرْفَ كلّه » .

وقد شهد له معاصروه بالثقافة العميقة الواسعة ، وكان معتزا بنفسه واثقاً من قدراته ، ولذا حسده وحقد عليه منافسوه .

وكان يقتبس فى أدبه كثيراً من مأثور الحكم والأمثال ، ولديه شغف كبير بالإشارة إلى الأحداث التاريخية والنوادر الأدبية، ومزج فى شعره بين الطبيعة والحب كسائر شعراء الأندلس . وله ديوان شعر كبير ، وأكثره فى مدح ابن جهور ، وفيه وصف بعض المواقع والأحوال، كما أن له شعراً فى الغزل والحنين والرثاء ووصف الطبيعة ، وأشهر قصائده على الاطلاق هى النونية التى كتبها إلى ولادة ومطلعها :

أضحى التنائى بديلا من تدانينا
ونـاب عن طيب لقيـــانا تجافينا

---

(١) توفى غريمة ابن عبدوس سنة ٤٧٢ﻫ وتوفيت ولادة بن المستكفى سنة ٤٨٤ﻫ وقد قاربت المائة سنة .

وله نثر كثير أشهره رسالتان :

الأولى : الرسالة الهَزْلية التى كتبها إلى الوزير أبى عامر بن عبدوس وتهكم به فيها على لسان ولادة .

والثانية : الرسالة الجِدّية التى بعث بها من سجنه إلى أبى الحزم بن جهور .

— ٢ —

مناسبة النونية :

بعد أن فر ابن زيدون إلى أشبيلية ، وابتعد عن حبيبته ولادة بنت المستكفى بالله، وأفسدت الدسائس ما بينهما من حب وعشق وأدى ذلك إلى وقوع القطيعة بينهما مدة من الزمن ، فاض فيها شوق ابن زيدون وهاجت بلابله وثارت شاعريته ، فبعث إليها بمجموعة من قصائد الحب والحنين ومنها هذه النونية التى نعرض لها، ورأيت أن أسوقها كاملة ؛ لأن جمالها لا يظهر إلا وهى مؤتلفة الشمل كاملة البناء ، والقصيدة من بحر البسيط (مستفعلين فاعلن أربع سنوات) .

وهى فى الغزل العفيف الذى يعبر عن الشوق واللوعة والحنين، وقد تأثر فيها وعارض بها نونية البحترى التى يقول فى أولها :

يكادُ عازلنا فى الحب يغرينا
فما لجاجُك فى لومِ المحبينا

— ٣ —

شرح الأفكار ومناقشتها :

١ — الأبيات من الأول إلى الحادى عشر فى الشكوى والعتاب .

بدأ ابن زيدون هذه القصيدة بشكوى البين والأعداء ، وبالعتب على محبوبته لطول البعد وتدخل الحساد ، وقال :

إن الفراق حل محل الوصال ، وإن الجفاء ناب عن طيب اللقاء .

وإنه كان يتمنى الموت والهلاك قبل أن يحل به الفراق ، ويتساءل عمن يبلغ محبوبته بحزنه وتفجعه على زمن الوصل فيقول : من الذى يبلغ الذين ألبسونا حزنا لا ينقضى ، ويكاد يقضى علينا :أن الزمن قد تغير فبعد أن كنا نسعد فيه ونضحك لقربنا منكم أصبحنا فيه الآن نحزن ونبكى ، وذلك استجابة لرغبة الأعداء وتحقيقا لدعوتهم علينا بالفراق، فانقطعت الصلة بيننا ، وبعد أن كنا لا نخشى البين أصبحنا لا نأمل حتى فى اللقاء .

ويقول لها : يا ترى أنالم أرض الأعداء بقطع مودتك ، ونقض عهدك فهل أرضيت الاعداء بقطع ودى ، وهل نالوا حظا من الرضا لديك ، أم كنت مثلى ولم تحقق لهم الرضا ؟

ويقول : إنه لم يتغير مع البين ، ولا يعرف إلا الوفاء رأيا ومسلكا ولنا عليكم إلا تفرحوا الحساد وتسروا المبغضين فينا ، ويذكر أنه كان ينتظر راحة فى اليأس ، لأن اليأس إحدى الراحتين ولكن يأسه زاده شوقا على شوق وحنينا إلى حنين ، فأصبحنا فى غير راحة .

٢ — الأبيات من الثانى عشر إلى التاسع عشر فى الوفاء على العهد .

يقول : ولقد ابتعدتم وابتعدنا فلم يهدأ لنا قلب ولم يجف لنا دمع من البكاء عليكم ، وحين تناجيكم قلوبنا — على البعاد — توشك الأحزان أن تقضى علينا لولا تمسكنا بالصبر وتعللنا بالآمال ، ولقد تحولت أيامنا إلى السواد وتبدلت ليالينا من السعادة والهنـاء إلى اليأس والشقاء ، وكانت حياتنا سعيدة ندية بائتلافنا ، وكان الصفاء يغمر الأماكن التى نلتقى ونجتمع فيها فنجنى ما نشاء من ثمار مودتنا ، ثم يدعو لعهدهم عهد السرور والحب بالسقيا والبركة والذى كنتم فيه عطرا وسعادة لأرواحنا ، ولا تظنوا أن البعاد يغيرنا ويقضى على حبنا لكم مثلما يحدث ذلك بين أكثر المحبين ، والله ما شغلنا بغيركم أو انصرفنا عنكم فلا زلتم أهلا لأمانينا .

٣ — الأبيات من العشرين إلى الثالث والعشرين تحية واستعطاف .

يطلب ابن زيدون من البرق أن يبكر بالمطر فيسقى قصر محبوبته مثلما شرب منها خالص الحب وأن يسأل هنا : هل يشقى الحبيب بتذكره كما يشقى هو بتذكر الحبيب ، ثم يحمل النسيم تحيته إلى ولادة عسى أن ترد عليه التحية فتكون سبباً فى حياته التى أوشك الهجر أن يقضى عليها . ويتمنى أن يقضى له باللقاء بعد طول المطال .

٤ — الأبيات من الرابع والعشرين إلى الثامن والثلاثين صورة لولادة .

يرسم ابن زيدون فى هذه الأبيات صورة لحبيبته ، ويجعلها ممثلة للجمال الإنسانى ، فيذكر أنها سليلة بيت ملكى وكأن الله خلقها من المسك وخلق بقية الناس من الطين ، وأنها صافية ذهبية الشعر وإذا تمايلت لم تطق حمل الحلى لكثرتها ، وأدمتها الخلاخيـل لرقتها ونعومتها ، وهى تعيش فى نعيم دائم فكانت الشمس حاضنة لها تقيها بضوئها فى

الأوقات القليلة التى تعرضت لها . وكأنما أشرقت النجوم فى محياها، لترد عنها عيون الحاسدين . وهى فى منزلة رفيعة من الشرف لا يصل إليها ، وإن كان ما بينهما من المودة والحب كاف عن ذلك . وهى روضة غناء كثيراً ما متعت نواظرنا بما فيها من ورود وزهور .

وهى حياة جنينا من نعيمها شتى المتع والملذات ، وهى نصيم كالزهر الغض تبخترنا فى نعمته الموشاة السابغة كالثوب ، ونحن نصون اسمك ولا نصرح به إكباراً لك وإجلالا لشأنك ، وتكفى صفتك فى الإيضاح عنك لتفردك بالجلال والجمال .

ويعود لمناجاتها فيذكر أنها جنة نعيم وبها أنهار ومياه وأن حياته فى الغربة جحيم لا يطاق ، ويقول : إن أيام حبنا كانت سريعة خاطفة التقينا فيها على الوصال ، وأغمضت سعادتنا عيون الواشين ، وكنا نلتقى فى الظلماء حتى لا تفضحنا أعين الناظرين الذين كنا نخاف منهم فنتفرق مع ضوء الصباح ، وابن زيدون يتذكر تلك الأيام الخالية فيحزن ولا يستمع لنداء عقله ، ويتنامى الصبر فى حزنه راحة له وتنفيس عن جواه .

٥ — الأبيات من التاسع والثلاثين إلى التاسع والأربعين . فى التفجع والحنين .

يتحدث الشاعر عن أيام الفراق فيذكر أن الأسى قد حل به منذ يوم الفراق فاستعان بالصبر ويقول : إننا نفضل الارتواء من منهلك على أى منهل آخر ، وإن كان منهلك يزيدنا عطشا كلما ازددنا منه شربا ، وإن فراقنا لموطن وكوكب جمالك لم يكن كرها منا وإنما اضطررنا إلى ذلك ففارقنا ديارك مرغمين مع قربها منا ، بسبب أحداث الدهر وصروفه ، وإننا نأسى ونتفجع على فراقك عندما نجتمع على الخمر والغناء، وإن كؤوس

الخمر وآلات العزف لاتجعلنا نهدأ ونرتاح لفراقك، ويطلب منها أن تحافظ على عهده كما حفظ عهدها فطبيعة الحر تفرض عليه أن يأخذ ماله ويؤدى ما عليه ويقول : ما زلنا على وفائنا فلم نستبدل بك أحدا يصرفنا عنك ويثنينا عن حبك ، حتى ولو كان هذا الإنسان بدرا فى ليلة مظلمة ، ومال إلينا وأحبنا فإنه لن يستطيع أن يحولنا عنك .

ونحن نكتفى من الحب بالوفاء ،ولا نطمع فى الوصال بل نقنع بالذكرى ونسعد بالطيف والخيال ، ثم يطالبها بجواب مشفوع بأياديها البيضاء التى طالما منحت بها العطف والحنان .

* * *

ولقد بدت الأفكار واضحة لا غموض فيها ولا التواء ، وهى مرتبة متسلسلة فقد بدأ ابن زيدون بالموازنة بين حالى اللقاء والجفاء ، وأحسن فى الموازنة بينهما ، وعاتب محبوبته وعبر عن وفائه لها وتمنى أن تكون مثله وفية مخلصة ، ورسم لها صورة مهذبة وجعلها ممثلة للجمال الإنسانى ، ولم يتطرق فى وصفه إلى الأشياء الحسية البارزة ، والشاعر لا يذكر اسم حبيبته فى القصيدة ،ويخاطبها بلفظ المذكر صونا لها وتأدبا معها ، وتفجع على أيام الوصال التى لم يغفل عنها مع شربه ولهوه فى أرض الغربة .

وهذه الافكار جميلة ومرتبة بلا شك ، فلقد برع الشاعر فى تصوير حبيبته ، وجعلها كل شىء مثل قوله : « يا روضة » و « ياحياة » و « ويانعيما » و « يا جنة الخلد » .

والأفكار دقيقة محددة كقوله :

إذ جانب العيش طَلْقٌ من تألفنا
ومربع اللهو صافٍ من تصافينا

والدقة هنا فى صدق التعليل ، فالعيش لم تتسع جوانبه إلا بفضل تألفه

مع حبيبته ، واللهو لم يصف مربعه إلا بفضل التصافى بين الحبيبين .

والأفكار عميقة والمعانى قوية ، ولكن أكثرها ليس من ابتكار وابتداع ابن زيدون ، وإنما هو متبع فى معظمها للأقدمين ،أى أنها ليست جديدة بل مألوفة ومطروقة ، كلوعة الفراق ، ووصف النساء بالرياض ، وطلب السقيا لديار الأحبة ، وتحميل النسيم التحية والاقتناع بالطيف والخيال، لكن ابن زيدون أضاف إلى هذه المعانى أزياء جديدة فى التصوير والتعبير كقوله :

ويا نسيم الصبا بلـغ تحيتنا
من لو على البعد حيا كان يحيينا

فيحمل النسيم تحيته إلى أحبابه، ويصفهم بالقدرة على إحيائه لو أسعفوه بتحية ، وهذا المعنى قد ورد فى مئات القصائد لكن ابن زيدون صاغه صياغة جميلة رائعة وقوله :

حالت لفقدكمُ أيامنا فغـدت
سودا ، وكانت بكم بيضا ليالينا

متذكرا أيام الأنس وعهود الصبابة .

وبدت براعته حين جعل محبوبته كل شيء « راجع البيت الثلاثين وما بعده ... » .

وأجاد الشاعر فى وصف أيام الوصل كقوله :

كأننا لم نبت ، والوصل ثالثنا
والدهر قد غضّ من أجفان واشينا

وأبان عن تفجعه وحنينه فى قوله :

يا جنة الخلد أبدلنا بسلسلها
والكوثر العذب زقوّما وغسلينا

ومن المعانى التى ألم بها ، وأجاد فى صياغتها قوله :

لسنا نسميك إجلالا وتكرمة
فقدرك المعتلى عن ذاك يغنينا
إذا انفردت وما شوركت فى صفة
فحسبنا الوصف إيضاحا وتبيينا

أخذ هذا المعنى البهاء زهير فقال :

ستكفيك من ذاك المسمى إشارة
ودعه مصونا بالجمال محجبا
أشر لى بوصف واحد من صفاته
تكن مثل من سمى وكنى ولقبا

والأفكار هنا ذاتية تعبر عن تجربة شعرية لابن زيدون وتكشف عن شخصيته وموهبته ، فهو شاعر رقيق الإحساس ، قوى الموهبة ، مستأثر بأدباء المشرق ، متتبع لصورهم وأفكارهم عفيف الغزل ، صادق التجربة ، وإنه رائد فى الشعر الأندلسى .

— ٤ —

الألفاظ والأساليب والموسيقى وملاءمتها للجو الشعورى :

عاش ابن زيدون فى الأندلس ، وشارك فى مجالسها وصالوناتها الأدبية ، وغمس ريشته فى مداد السياسة ، وتنسم أريج الطبيعة الغناء ، وتنقل بين حدائقها الفيحاء ، وتأثر برجالات المشرق الذين تزعموا دولة الشعر والأدب ، وأحب الجمال الإنسانى الذى كانت ولادة ممثلة له ، فأذكت هذه المشاعر عواطفه ، وأوقدت أحاسيسه فجاء شعره فى هذه

(١) انظر ديوان البهاء ص ٣٨ .

النونية نابعا من قلبه ، معبرا عن آلامه صادرا عن موهبة فطرية أصيلة ، ولهذا لهج الكثيرون بمعارضتها والتحدث عنها منذ صياغتها حتى الآن .

ومن متابعة ألفاظ وأساليب هذه القصيدة نجد فيها صدى وانعكاسا لمشاعر وأحاسيس ابن زيدون .

والألفاظ رقيقة سهلة لينة كقوله : « ناب — حان — بنا — سارى البرق — نسيم الصبا — حيا — مسكا — ظئرا — خليلا ... » .

وابن زيدون من الشعراء الذين يستخدمون الألفاظ الموحية والمعبرة عن حالته النفسية ، فقد استخدم الكلمات الدالة على الشوق والحب والحنين كقوله : « يضحكنا ، شوقا ، تألفنا ، تصافينا ، الوفاء ، أرواحنا ، صرف الهوى ، هواك ، المودة ، السعد، سيما ارتياح . حبيبا .. إلخ » .

وعبر عن لوعته وأساه وتفجعه بالألفاظ الملائمة كقوله :

« التنائى ، التجافى ، حزنا ، يبكينا ، تفرقنا ، الأسى ، سوءا، اليأس ، تأسى ، زقوما ، غسلينا .. إلخ » .

والشاعر يعيش حياته بين الحساد والخصوم الذين يتنافسون جميعا فى حب ولادة .

ويستخدم الألفاظ الدالة على هذا الجو الشعورى كقوله : « العدا ، أعاديكم ، أعادينا ، عوادينا — ذى حسد — كاشحا، واشينا .. إلخ » .

ويرتقى الى درجة كبيرة من العفة فلا يذكر اسم حبيبته على عكس معظم الغزليين ، ويخاطبها كثيرا بلفظ المذكر مثل قوله : « ربيب ملك — كانت له الشمس ظئرا » ويسمو هو الآخر بنفسه فيتحدث عنها بلفظ الجمع ، وهذه ثقة فى النفس واعتداد بالذات كقوله : « لم نعتقد بعدكم إلا الوفاء لكم » — ضمائرنا — أرواحنا تذكرنا — يقضينا . . إلخ » .

وهو ينتقى الألفاظ التى تعبر عن جو الأندلس الساحر ، وبخاصة مدينة قرطبة التى شهدت لقاءاته مع حبيبته كقوله : « جانب العيش — مربع اللهو — فنون الوصل — دانية — قطوفه — لجنينا — ليسق عهدكم — ويا نسيم الصبا — يا روضة — السلسل — الماء العذب يروينا — بدر الدجى .. إلخ »

ونجد فى قوله :

ربيب ملك كأن الله أنشأه

مسكاً وقدر إنشاء الورى طينا

إشارة إلى بعض الناس لإستعماله كلمة «طينا» وفى الكلمة إيماء بالغضب، لبعد المسافة بين المسك والطين ، مع أن الطين هو أصل الإنسان ، وإن كانت كلمة « كأن » تخفف من حدة الغضب، لأن المسألة مجرد تشبيه ، وهكذا نرى الشاعر قد انتقى الألفاظ السهلة ، وأحسن صياغتها ، ولاءم بينها وبين الجو النفسى .

والأساليب التى يُعبَر عنها بالتراكيب تتفق مع الألفاظ فى ملاءمتها للجو النفسى والشعورى .

فالشاعر يميل إلى الاستطراد والتكرار فى المعانى ، للتأكيد على حبه كقوله :

والله ما طلبت أرواحنا بدلا

وقوله :

فما استعضنا خليلا منك يحبسُنا

وقوله :

ولو صبا نحونا من عُلو مطلعه

بدرُ الدجى لم يكنْ حاشاك يصبينا

وقوة الأسلوب فى هذه النونية تظهر من ترابط التراكيب والملائمة بين الألفاظ والمعانى ، والمزاوجة بين طول العبارات وقصرها ، ووضوح المعنى ، وعدم التنافر بين الكلمات أو الحروف ، ومجانبة الكلمات المخالفة للقياس ، والمراعاة بينها من حيث التقديم والتأخير ، والذكر والحذف ، والقصر ، والتنويع بين الإنشاء والخبر ، والتعويل على المحسنات التى تخدم اللفظ والمعنى معا .

والأسلوب هنا لايجرى على وتيرة واحدة ، بل يمزج الشاعر بين الإنشاء والخبر ؛ لتكتمل الصورة المعبرة المؤثرة .

وابن زيدون ينوع فى صوره الجزئية ، فيعبر عنها بأكثر من صيغة وبأكثر من لون ، وهذا التنويع نلمسه فى خروج المعانى الإنشائية والخبرية كذلك إلى معان ثانوية ، فتكتمل الصورة الكلية العامة وبذلك يحدث التأثير الذى نلمسه فى هذه الأبيات ، لنقرأ قوله :

من مبلغ الملبسينا بانتزاحهم

حزنا مع الدهر لايبلى ويُبلينا

أن الزمان الذى مازال يُضحكنا

أنسا بقربهم قد عاد يُبكينا ؟

فالاستفهام هنا يكشف عن تمنيه فى تحقيق تلك الرغبة ، وكذلك فى قوله : هل نال حظاً من العتبى أعادينا ؟ وقوله : هل يعنى تذكرنا إلفاً ؟ استفهام يتمنى فيه الشاعر أيضا أن تضنى حبيبته بحبه ، كما يتعذب هو

الآخر بالبعد عنها ، ويتمنى أن يقضى الدهر له بلقائها ، والعودة إليها فى قوله :

فهل أرى الدهر يقضينا مساعفة ... منه ..؟

وابن زيدون يحول زفراته إلى أمنيات حلوة وعذبة ، ويستخدم النداء للتمنى فى قوله :

يا ليت شعرى ، وقوله : يا سارى البرق ، وقوله : ويا نسيم الصبا ، إذ أن البرق السارى ونسيم الصبا يتمعتان من دون الشاعر بلقاء المحبوبة ، وهذه الأنغام ترددها لواعج الأسى والحسرة ، وتكتمل بها الصورة الشعورية التى يتطلبها المقام .

فالشاعر ملتاع حزين ، وعاجز عن الوصول إلى ديار ولادة فيلجأ إلى التمنى من خلال هذا النداء .

وينادى ولادة متحسراً على زمن الوصال فيقول :

« يا روضة ، ويا حياة ، ويا نعيما ، يا جنة الخلد .... إلخ .

والأمر فى قوله : « ليسق عهـــدكم » للدعاء إذ يدعو الشاعر لزمن الوصل بالسقيا والنعيم . ومثله : غاد القصر ، اسق به ، واسأل هنالك ، بلغ تحيتنا . . » .

والأمر فى قوله : دومى على العهد ، وأولى وفاء ، للالتماس .

والشاعر فى قوله : « لاتحسبوا نأيكم عنا يغيرنا يلتمس من ولادة ألا تظن ذلك ، لأن كثيراً ما غير يأس اللقاء من المحبين . وهذا شىء معتاد ومألوف بين الناس .

ولقد تأثر ابن زيدون بالطبيعة الأندلسية الزاهية فجاءت المحسنات

البديعية تعبيراً عن واقع الحياة ، وتنفيساً عما بداخل الشاعر من صراعات تنتابه فى الاغتراب عن ديار المحبوبة ، كالطباق بين قوله : « التنـــائى والتدانى » .

والطباق فى قوله : لقيانا وتجافينا وفى قوله : يضحكنا ويبكينا يكشف عن امتزاج الحبيبين ، وأنهما كشخص واحد ، ويدل على تمكن الشاعر من قلب حبيبته ، ولا حظ الطباق فى قوله : ابتلت وجفت وفى قوله : طلبت وانصرفت ولنقرأ البيت (٣٩) لنرى الطباق وأثره فى إبراز المعنى قال :

إنّا قرأنا الأسى يوم النوى سورا
مكتوبة وأخذنا الصبر تلقينا

والطباق فى قوله : الأسى والصبر ، يسهم فى إبراز حالة الشاعر .

وتحسس المعانى التى تتجلى من وراء الطباق فى قوله :

يروينا فيظمينا ، ودان ودين

وفى قوله : يخشى تفرقنا ويرجى تلاقينا مقابلة جميلة تكشف عن حالة الشاعر مع حبيبته بين عهدين مختلفين ، ومثلها المقابلة فى البيت الرابع عشر : أيامنا غدت سوداً ، وكانت بكم بيضا ليالينا ، ولنرجع إلى البيت (٣٥) لنرى المقابلة الجميلة بين السلسل والكوثر العذب فى جنة الحب ، وبين الزقوم والغسلين فى لهيب الفراق .

ونرى فى البيت (٣٧) مقابلة بين خاطر الظلماء يكتمنا ، ولسان الصبح يفشينا .

وفى قوله : ذكرنا الحزن مقابلة لقوله : وتركنا الصبر .

ومن المحسنات التى استعان بها ابن زيدون الجناس الناقص بين

قوله : الأسى وتأسينا ، وفى قوله : « أرواحنا ورياحين وفى قوله : « حيًّنا ويحيينا » .

فالتعبير يمتاز بالرقة والعذوبة ، ويجمع بين الموسيقى الظاهرة الممثلة فى بحر البسيط بأوزانه الخفيفة الراقصة ، والقافية السهلة اللينة المنقادة لحرف النون مع ألف الاطلاق التى تمتد مع النون ، والتى تضيف إلى النص نغمة حلوة جميلة إلى جانب المحسنات البديعية التى تكسب المعنى رونقا وجمالا ، والموسيقى الداخلية التى تنبع من الألفاظ المنتقاة الجميلة ، الرقيقة ، المعبرة عن الحالة الشعورية ، ولقد أطلق على ابن زيدون : « بحترى المغرب » أو بحترى الأندلس « لعذوبة كلماته وحسن صياغتها ، وسلامة عباراته التى تفيض منها الموسيقى المعبرة الناطقة والنابضة بالحب والحياة .

— • —

الخيال والعاطفة :

استعان ابن زيدون بالخيال لتوضيح معانيه ونقل مشاعره وأحاسيسه إلى حبيبته ، والخيال وليد العاطفة ، وهو شاعر صادق مع نفسه ومع ولادة التى أخلص لها وتفانى فى حبها وهام بجمالها ، فوصفها أروع وصف ورسم لها بإلهام الشعر وصدق الفن صورة رائعة ، وجعلها نموذجا ومثالا للجمال الطبيعى فى العديد من الصور الجزئية التى تتوالى فى إطار الصورة الكلية الشاملة .

فى البيت الثانى : مبالغة حين تمنى الموت قبل أن يذوق الفراق ، وهذا يوحى بشدة لوعته للبين ، أو أنه استعار الحين للفراق استعارة تصريحية لبيان أثر الفراق عليه وعلى حبيبته حتى جعله هلاكا وموتا .

وفى البيت الثالث : جعل نفسه ثوباً يبلى ، وجعل الحزن كالأيام التى تبلى وهما استعارتان مكنيتان، لإبراز الحزن وتجسيمه، وبيان أثره فى نفس الشاعر .

وفى البيت الرابع : جعل الزمان إنساناً أو شيئاً محسوساً يثير الضحك (استعارة مكنية) .

وقوله : « قد عاد يبكينا » ترشيح وتقوية للإستعارة ، وإضحاك الزمن وإبكاؤه للناس كنايتان عن الهناء والشقاء .

وفى البيت الخامس : استعارة مكنية فى قوله : « تساقينا الهوى » إذ شبه الهوى والحب بشىء محسوس يسقى ويحتسى وفى قوله : « بأن نغص » كناية عن الفراق والإبتعاد .

وقوله : « فقال الدهر» تشخيص للدهر بصورة إنسان يتكلم، وهكذا تتلاق وتتجمع الصور الجزئية فى استكمال وإبراز الصورة الكلية العامة ، ولنقرأ : —

« غيظ العدا ، تسافينا الهوى ، بأن نغص ، فقال الدهر ... » .

وفى البيت السادس : كنايتان عن التفرق والبين ، الأولى فى قوله «فانحل ما كان معقوداً بأنفسنا» والثانية فى قوله:«وانبت ما كان موصولا بأيدينا » .

واستعار فى البيت التاسع : نتقلد لنعتقد استعارة تصريحية تبعية ، واستعار « دينا » لحبه لها. وقوله :«ولم نتقلد غيره دينا » كناية عن دوام الحب والوفاء .

وفى البيت العاشر : مجاز مرسل علاقته الجزئية فى قوله : «عين ذى حسد» وفيه إشارة إلى خطورة عين الحاسد على المحسود .

وفى البيت الحادى عشر : أبرز اليأس فى صـــورة محسوسة مجسمة «وعوارضه» ترشيح وتقوية للإستعارة المكنية ، وهذا الخيال يكشف عن حسرته ولوعته وشدة حزنه على ما مضى وانقضى .

وفى البيت الثانى عشر : صورتان جزئيتان فى قوله : «فما ابتلت جوانحنا» الأولى استعارة تصريحية تبعية حيث شبه راحة القلب بالبلل، والثانية مجاز مرسل فى قوله : جوانحنا وعلاقته المحلية إذ ذكر الجوانح وأراد القلب ، وفى قوله : «ولا جفت مآقينا» كناية عن شدة الحب والشوق والحنين .

وفى البيت الثالث عشر: كناية فى قوله:يقضى علينا الأسى، وهى تعبر عن لوعته وحسرته ، وتصور حالته بعد الفراق وإن كان قوله :«نكاد» وقوله : «لولا تأسينا» يجعل المبالغة مقبولة .

وقوله فى البيت الرابع عشر : غدت أيامنا سوداً، كناية عن الحزن والأسى والكآبة ، وقوله : «بيضاً ليالينا» كناية عن السعادة والسرور، وذلك لإرتباط الحزن بالسواد، والسرور بالبياض لدى الكثير من الناس، والشاعر يتذكر أيام الأنس وليالى الغرام .

وقوله فى البيت الخامس عشر:«جانب العيش طلق» تشبيه بليغ ،وهو كناية عن السعادة وكذلك قوله:«مربع اللهو صاف» ، حيث شبه مربع اللهو بالمنهل الصافى ، لأن الأصل فى الصفاء يكون للماء وفيه إيحاء بسعادة الحبيبين .

وفى البيت السادس عشر: معنى رشيق وتصوير رائع، فالشاعر قد جعل

الوصل شجرة عظيمة ولها أفنان، وقطوفها دانية وهو يجذب الأفنان نحوه ليجنى من ثمارها ما يشاء، إنه حقاً تصوير رائع وخيال وثاب، وإيحاء جميل بالسعادة والبهجة فى أيام الوصال.

وفى البيت السابع عشر: استعارة مكنية فى قوله: ليسق عهدكم، حيث جعل فيها العهد الجميل أرضا يدعو لها بالسقيا، والشاعر فى هذه الصورة الجميلة متأثر بالشعراء القدامى الذين كانوا يعيشون فى البادية. ويدعون لديار الأحبة بالسقيا وهطول المطر، حتى تظل عامرة فلا يرحلون عنها، لكن قرطبة وأشبيلية وغيرها من ممالك الأندلس لم تكن فى حاجة إلى مثل هذا الدعاء. وقوله: «فما كنتم لأرواحنا إلا رياحينا» تشبية لولادة بالرياحين.

وفى البيت التاسع عشر: جعل الأرواح إنساناً، وهـــذا تشخيص للأرواح بالمكنية، وفى قوله: «ولا انصرفت عنكم أمانينا» استعارة مكنية، إذ تخيل الأمانى فى تعلقها بالحبيبة إنساناً يتجه إليها ولا ينصرف عنهـــا.

وفى البيت العشرين: استعارة مكنية فى قوله: ياسارى البرق، حيث جعل البرق إنساناً يكلفه، وقوله: غاد وقوله: اسق به، ترشيح وتقوية للاستعارة.

وفى الشطر الثانى من البيت استعارة مكنية أخرى تصور فيها الهوى والود شراباً عذباً يسق، وفيها إيحاء بالسعادة وتجسيم للهوى وإبراز للمعنى فى صورة محسوسة.

وقوله فى البيت الحادى والعشرين: واسأل هنالك، استعارة مكنية أو ترشيح مثل قوله: غاد واسق.

وفى البيت الثانى والعشرين: استعارة مكنية فى قوله: «يانسيم الصبا»

تصور فيها النسيم إنسانا يخاطبه وقوله : « بلغ » ترشيح وتقوية لهذا الخيال .

وقوله : «يحيينا» استعارة مكنية فقد تخيل نفسه بسبب البعد عن حبيبته ميتاً تعود إليه الحياة بتحية محبوبته .

وقوله :«من لو على البعد حياً كان يحيينا» مبالغة تصور أثر ووقع تحية حبيبته ، وكيف تبعث فيه الحياة .

وفى البيت الثالث والعشرين : استعارة مكنية فى قوله :«أرى الدهر يقضينا» إذ تخيل الدهر قاضياً .

وفى البيت الرابع والعشرين : شبه حبيبته بالمسك ، وشبه الناس بالطين وفى الأسلوب مبالغة حيث جعلها من جنس آخر غير جنس بنى الإنسان . وأن كانت كلمة « كأن » تجعل المبالغه مقبولة .

وفى البيت السادس والعشرين : مبالغتان الأولى فى قوله :

إذا تأود آدته رفاهيـــة
توم العقود .. ..

فيقول : إنها إذا تمايلت أثقلتها وثبتتها الحلى الكثيرة، وهذه مبالغة فى وصف رفاهيتها .

والثانية فى قوله :

. . . .
.. .. .. وأدمتها البرى لينا

والمبالغة فى وصف نعومتها ، حيث جعلها تتأذى بالعقود والأساور والخلاخيل .

وجعل فى البيت السابع والعشرين : الشمس حاضنة لها وهذا تشبيه بليغ ، وكناية عن النعيم وأن جسمها نورانى .

وفى البيت الثامن والعشرين : تشبيه حيث جعل وجهها كأنه كوكب علقت عليه التعاويذ ، وهذا كناية عن الجمال والإشراق.

والبيت التاسع والعشرون : يكشف عن تواضع ابن زيدون ، ويوضح أن كفاية الحب تعوضها عن كل شىء .

وفى البيت الثلاثين : استعارة تصريحية فى قوله : ياروضة، إذ شبه محبوبته بالروضة التى تسر عيون الناظرين ، وتبهج نفوسهم فمحبوبته تسر أيضاً بجمالها ، ورشح الاستعارة بقوله أجنت وقوله : «ورداً ونسرينا» والروضة هنا تهجم على الشاعر فتعلمه كيف يجنى قطوفها ، ونجد هنا عذوبة فى مناداة الروضة وتعبيراً عن طبيعة الأندلس .

وفى البيت الحادى والثلاثين : يتوسع الشاعر فى خياله ، ويبالغ فيجعل حبيبته حياة ناضرة عامرة بالزهر الجميل ، ويجعل المنى أصنافا واللذات أنواعاً ، وهذه وثبات فى الخيال، لا يقدر عليها إلا من اكتوى بنار العشق ، واحترق بلهيب الوجد .

وفى البيت الثانى والثلاثين: يجعل حبيبته نعيماً، ويشبه النعيم بالروض ذى الزهر الغض، وهو يخطر فى هذا الروض، ويجعل النعمى سابغة موشاة كالثوب السابغ، ويكشف الخيال عن صورة لفتى منعم يسحب ذيل النعيم، والشاعر يتحسر على ماضاع من الحب والهوى .

وقوله فى البيت الرابع والثلاثين : وماشوركت فى صفه، مبالغة جميلة تلائم الحديث عن المحبوبة.

وفى البيت الخامس والثلاثين : صورة جميلة جعل فيها حبيبته جنة للخلد بما فيها من نعيم وأنهار ومياه عذبة .

وفى البيت السادس والثلاثين : مبالغات وصور متتابعة ففى قوله : والوصل ثالثنا ، تشخيص للوصل بالمكنية ، وقوله : والسعد قد غض من أجفان واشينا ، كناية عن تمام السعادة بسبب الأمن من الرقباء وقوله : والسعد قد غض، أى أغض عيون الواشين عنا فلارقيب ولا واش وهذا تشخيص حى للسعد بالاستعارة المكنية .

وفى البيت السابع والثلاثين : صورة مركبة حيث شخص الظلماء فجعلها إنساناً حياً وجعل نفسه وولادة سرين فى خاطر هذه الظلماء ، ثم شخص الصبح فجعله إنساناً حياً له لسان يفشى هذا السر المضمر فى الظلماء .

هنا صورة مركبة فيها الظلماء مشخصة ولها خاطر وابن زيدون وولادة كالسرين فى هـــذا الخاطر أى أنه شبه نفسه وولادة بسرين فى خاطر الظلماء، ثم الصبح الذى يشرق على هذا الظلام فيكشف هذا السر ، واللوحة عبارة عن ظلام داخله عناصر كثيرة فيه اثنان جالسان متخفيان ، وفيه صبح ، ويبرز الصبح بضوئه فيكاد السران أن يُفشيا ، وهذه الصورة المركبة هى التى يطلق عليها « التشبيه التمثيلى » .

وفى البيت الثامن والثلاثين : تشخيص للنهى والصبر ، وإبرازهما فى صورتين محسوستين وهذا من باب التجوز ، وإلا فبعض المجازات من كثرة الاستعمالات أصبحت كالحقيقة .

وفى البيت التاسع والثلاثين : جعل الأسى مقروءاً كالسور المكتوبة فى الجلالة والمهابة، وفيه إشارة إلى أن يوم الفراق محفور فى ذاكرة الشاعر .

وشبه فى البيت الأربعين : حب ولادة بالمنهل العذب فى العطاء والتروية ، وإن كان يمتاز عن موارد المياه فى أن شاربه يزداد ظمأ كلما شرب منه، أى أنه منهل من نوع خاص .

وجعل فى البيت الحادى والأربعين : للجمال أفقاً وكواكب وهذه صورة جميلة ، وخيال رائع، وجعل ولادة كوكب هذا الأفق والشاعر غير سال عنه ولا مفارق له . وقوله : أنت كوكبه وسالين عنه ولم نهجره تأكيد للزومه لهذا الأفق وتعلقه به .

وفى البيت الثانى والأربعين : استعارة مكنية فى قوله : عدتنا عوادينا حيث شخص العوادى وجعلها تؤثر فيه وتتحكم فى تصرفاته .

والبيتان الثالث والأربعون والرابع والأربعون : فى خطاب ولادة التى أقصاها الزمن عن ابن زيدون وهما مترابطان ، ومعناهما دقيق ، فالشراب والغناء يهيجان العواطف ويبعثان الوجد الدفين ، لكنهما لا ينسيان الشاعر محبوبته ولا يلهيانه عنها .

وفى البيت الخامس والأربعين : حكمة مناسبة يسوقها الشاعر عندما يطلب من محبوبته المحافظة على العهد والمداومة على الحب .

وشبه فى البيت السابع والأربعين : بدر الدجى بكائن يسعى إلى الشاعر ليشغله عنها ، ولكنها عنده أجمل من البدر وهى مبالغة فى وصف جمالها وبيان تأثيره على ابن زيدون .

وفى البيت الثامن والأربعين : يجعل الصلة والطيف والذكر أشياء محسوسة يتعرف عليها ويتعامل معها .

والعاطفة فى هذه القصيدة قوية ؛ لأنها نابعة من القلب وصادرة عن شاعر عاش هذه التجربة الصادقة ، وتأثر بها وعبر عنها فجاء التعبير صادقاً .

وكان خيال ابن زيدون بارعاً وثاباً متتابعاً ، لأنه وليد عاطفة قوية صادقة، وهكذا يتوافق الخيال مع العاطفة، والتعبير مع الشعور قوة وصدقاً وعمقاً واتساعاً .

— ٦ —

أثر الطبيعة الأندلسية فى القصيدة :

تكشف هذه القصيدة عن طبيعة الحياة فى الأندلس ، وفيها من هذه الحياة :

١ — استخدام عناصر الطبيعة كثيراً كالرياض والنسيم والشمس والبرق ، والرياحين والورود والمنهل وبدر الدجى والسلسل والكوثر العذب ومسكا . وقال :

وإذ هصرنا فنون الوصل دانية   قطوفه فجنينا منــــه ماشينا
ليسق عهدكم عهد السرور فما   كنتم لأرواحنا إلا رياحينا

٢ — رقة الألفاظ وعذوبتها وسهولة التراكيب . كقوله : ربيب ملك ، منى ضروباً ، إناقرأنا الأسى ، دومى على العهد، أما هواك . .

وقوله :

ياسارى البرق غاد القصرَ فاسق به
مَنْ كان صرف الهوى والود يسقينا

وقوله :

ويا نسيم الصبا بلغْ تحيتنا   مَن لوعلى البعد حياً كان يحيينا

وقوله :

ربيب ملك كأن الله أنشأه   مسكاً وقدر إنشاء الورى طيناً

٣ — والصور الخيالية الكثيرة من تشبيه واستعارة وكناية ومبالغة كقوله: مربع اللهو صاف — ياسارى البرق — وأدمته البرى لينا — من لو على البعد حياً كان يحيينا — ، ولقد تغنى الشعراء بطبيعة الأندلس فجاء شعرهم جميلا بديعاً معبراً عن الحياء والأحياء .

٤ — ظهور هذا النوع من الغزل العفيف فى الأندلس يكشف عن رق فى البيئة وحضارة وتقدم فى الفهم ، وانتعاش فى الذوق العام . والشاعر ينبهنا إلى هذا فى قوله :

لسنا نسميك إجلالا وتكرمة　　　فقدرك المعتلى عن ذاك يغنينا

وتكشف النونية عن التنافس فى الحب ، والصراع حول ولادة ، وهذا يؤدى بالضرورة إلى تنافس فى الأدب والشعر .

والشعر الأندلسى وثيق الصلة بشعر المشارقة ، وابن زيدون متأثر إلى حد كبير بأفكار وصور المشارقة، كتحويل النسيم التحية إلى المحبوبة ، وطلب السقيا لديارها ، والتناسى بالخمر والأوتار والمبالغة فى وصف يوم الفراق إلى غير ذلك مما سبقت الإشارة إليه فى الشرح والتحليل .

خطبة أندلسية للسان الدين بن الخطيب

فى التهنئة بالفتح

— ١ —

الخطابة الأندلسية :

بدأت الخطابة الأندلسية قوية منذ دخل العرب الأندلس فى نهاية القرن الأول الهجرى ، واستمرت على تلك الحال حتى نهاية القرن الرابع الهجرى ، وتوافرت لها أسباب القوة والأزدهار ، وكان ذلك فى عهد الولاة الفاتحين ، وعهد الحكم الأموى ، ولقد أضيف القضاء إلى الخطابة فنبه شأنها ، وعظم أمرها . وصار لها احترامها ، حتى إنهم كانوا إذا أرادوا أن يكرموا عالما من علمائهم لقبوه « بالخطيب » .

وفى القرن الخامس الهجرى وما بعده حتى نهاية الحكم العربى بالأندلس فى سنة سبع وتسعين وثمانمائة أصيبت الخطابة بالضعف والوهن ؛ للفساد السياسى ، واضطراب الألسنة ، والاستغناء بالكتابة عن ألسنة الخطباء ، واختلال السلائق بالعجمة ، وأصبحت بذلك متكلفة مسجوعة محشوة بالبديع ، محصورة فى أغراض محدودة ، كالوفاء والتهنئة والوعظ والإرشاد . كما هان أمرها فوكلت إلى صغار العلماء الذين لم يستطيعوا الارتجال ، فكانوا يعدون الخطب أو تعدّ لهم ، ويحفظونها ، وإن كان ذلك لم يحل دون ظهور الخطباء الأفذاذ وبخاصة فى دولة بنى الأحمر[1] التى كانت تعرف للأدب قدره مثل لسان الدين بن الخطيب .

---

(١) بنو الأحمر : أسرة عربية حكمت الأندلس من عام ٦٢٩هـ إلى =

— ٢ —

التعريف بلسان الدين :

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد بن عبدالله السلمانى اللوشىّ الأصل ، الغرناطى ، الأندلسى الملقب بلسان الدين بن الخطيب ، وبذى الوزارتين القلم والسيف . وأصله من أسرة شامية نزحت إلى الأندلس ، وأقامت فى « لوشة » على مقربة من غرناطة ، ثم فى قرطبة ، وطليطلة ، واستقرت أخيراً فى غرناطة ، وكان أبوه وزيراً بها ، ومات فى إحدى النكبات التى ألمت بها ، وأخذت أمواله .

ولد لسان الدين بغرناطة سنة ثلاث عشرة وسبعمائة من الهجرة ، ونشأ بهذه المدينة فى ظل دولة بنى الأحمر ، ولقد عنى أبوه بتربيته وتثقيفه ، فنبغ فى الكتابة والشعر والتاريخ والفقه والفلسفة . وأعجب به سلطان غرناطه « أبو الحجاج يوسف بن إسماعيل » أحد ملوك بنى الأحمر بالأندلس فولاه الوزارة سنة (٧٢٣ هـ — ٧٥٥ هـ) ثم وزر لسان الدين لابنه الغنى بالله محمد الخامس من بعده ، وعظمت مكانته وطار ذكره إلى المغرب العربى وصار له النفوذ الأعظم فى دولة بنى الأحمر ، وعندما طرد الغنى بالله إلى المغرب لحق به لسان الدين .

ولقد عاد السلطان الغنى بالله إلى غرناطة واسترجع ملكه سنة ٧٦٣هـ وبقى لسان الدين بالمغرب مع أهل السلطان وأولاده ، ثم لحق به إلى غرناطة ، حيث عاد إلى منصب الوزارة ، وعاد إليه نفوذه الذى كبر

= عام ٨٩٧هـ وانتعش معها حال الأدب بعد أن خمدت جذوته فى عهد الطوائف وعهد المرابطين والموحدين .

واستعظم ، وعندما شعر بسعى حاسديه فى الوشاية به لدى سلطانة الغنى بالله ، وأحس أن مكانته على وشك الانهيار كاتب سلطان المغرب عبد العزيز بن على فى الارتحال إليه حيث كان يعيش قبل ذلك، واستجاب له سلطان المغرب ورحب به فترك لسان الدين الأندلس خلسة ، وفر إلى جبل طارق، ووصل إلى تلمسان حيث كان بها سنة ٧٧٣هـ وأكرمه السلطان وأحسن استقباله ، وأرسل مبعوثاً من طرفه ليستقدم أهله وأولاده .

ولقد سعد لسان الدين بالإقامة فى مدينة فاس ، واشترى فيها ضياعاً وأملاكاً . وبعد أن مات السلطان عبد العزيز خلفه ابه السعيد بالله الذى ثم خلعه ، وتولى مكانه السلطان أحمد إبراهيم الملقب بالمستنصر والذى كان على علاقة طيبة بسلطان غرناطة الغنى بالله ، وقد ساعده الغنى بالله ومد له يد العون فى مقابل أن يسلم له لسان الدين .

ولقد قبض المستنصر على لسان الدين ، وبعث بذلك للغنى بالله الذى أرسل هو الآخر وزيراً من طرفة ليحاكم لسان الدين بمدينة فاس ، فعقد هذا المبعوث مجلس الشورى بالمدينة ، ووجه إلى لسان الدين تهمه « الزندقة » و « سلوك مذهب الفلاسفة » ثم دخل لسان الدين السجن ، ليدخل عليه ذات ليلة مجموعة من الخونة فأطبقوا عليه ، وقتلوه خنقاً فى سنة ٧٧٦هـ . ثم دفن بمدينة فاس المغربية .

كان ابن الخطيب كاتباً مؤرخاً خطيباً متفلسفاً عالماً فى الرياضيات والطب والفقه ، وألف فيها كلها . وله شعر جيد ، ومن أبرع ما قاله لاميته المشهورة التى خاطب بها السلطان حين عاد من المغرب إلى الأندلس وأولها :

الحق يعلو والأباطل تسفُل
واللهُ عن أحكامه لا يُسأل

وقال فى موشحة له :

جادك الغيثُ إذا الغيث همى
يا زمانَ الوصل بالأندلس

لم يكن وصلك إلا حُلما
فى الكرى أو خِلسةَ المختلس

ولقد جمع أحمد بن محمد المقّرى التلمسانى كثيراً من آثاره الأدبية فى كتابه « نفح الطيب فى غصن الأندلس الرطيب»(١) والكتاب من أهم المراجع فى الأدب الأندلسى .

ومن أهم مؤلفات لسان الدين :

١ — الإحاطة فى أخبار غرناطة ، وهو معجم تاريخى لمشاهير غرناطة .

٢ — اللمحة البدرية .

٣ — التاج المحلى .

٤ — الإكليل الزاهر .

٥ — الروضة .

٦ — الحلل المرقومة .

(١) الكتاب مطبوع فى عدة طبعات منها طبعة دار صادر بيروت عام ١٩٦٨م فى ثمانية أجزاء ، وهى التى أعتمدت عليها عند دراسة خطبة لسان الدين .

٧ — ديوان شعر .

٨ — أعمال الأعلام وهو من أهم كتبه المطبوعة .

— ٣ —

تعرضت مدينة (إطريرة[1]) لغزو الأعداء ... ولكن المسلمين العرب فيها استطاعوا أن يحققوا نصراً عزيزاً ، ويدفعوا الأذى عن المدينة وألحقوا بالعدو شر هزيمة ، وكان ذلك فى عهد السلطان الغنى بالله.

وقد عم الفرح والبشر والسرور بين الناس ، وأراد السلطان أن يهنىء المسلمين بهذا الفتح المبين فكلف لسان الدين أن يسوق هذه الخطبة على لسانه. ويبشر فيها بالفتح والانتصار، فهى موجهة إلى المسلمين بالأندلس وموضوعها التهنئة بالفتح .

ولقد اخترت هذه الخطبة لسهولتها وصدقها فى التعبير ، وعدم تكلفها فى استخدام المحسنات التى تكبل الأسلوب، وتقيد المعنى، وترهق السامع وتنفر القارىء .

— ٤ —

ـ النص ـ[2]

« أيها الناس، ضاعف الله تعالى بمزيد النعم سروركم ، وتكفل بلطفه الخفى فى مثل هذا القطر الغريب أموركم .

أبشركم بما كتب به سلطانكم السعيد إليكم ، المترادفة بيمنه وسعادته

---

(١) إطريرة (UTRERA) إلى الجنوب الشرقى من أشبيلية على بعد ٣٩ كيلو متراً منها وهى بكسر الهمزة وسكون الطاء .

(٢) نفح الطيب جـ ٦ ص ٢٣٩

نعم الله تعالى عليكم ، امتع الله تعالى الإسلام ببقائه ، وأيده على أعدائه ، ونصره فى أرضه بملائكة سمائه ، وأن الله تعالى فتح له الفتح المبين ، وأعز بحركة جهاده الدين ، وبيض وجوه المؤمنين ، وأظفره باطريوة البلد الذى جمع المسلمون بأسرهم لجيعة تثير الحمية، وتحرك الأنفس الأبية ، فانتقم الله تعالى منهم على يده ، وبلغه من استئصالهم غاية مقصده، فصدقَ من الله تعالى لأوليائه وعلى أعدائه الوعد والوعيد، وحكم بإبادتهم المبدىء المعيد «وَكذلك أخْذُ ربك إذا أخذَ القرى وهى ظالمة ،إن أخذه أليم شديد»[1] وتحصَّل من سببه بعدما رويت السيوف من دمائهم آلاف عديدة ، لم يسمع بمثلها فى المدد المديدة ، والعهود البعيدة ، ولم يُصبْ من إخوانكم المسلمين عدد يذكر ، ولا رجلٌ يعتبر ، فتح هنىٌّ ، وصنع سنى ولطف خفى ووعد وفى . فاستبشروا بفضل الله تعالى ونعمته . وقفوا عند الافتقار والانقطاع لرحمته ،وقابلوا نعمه بالشكر يزدكم ،واستبصروا فى الدفاع عن دينكم ينصركم ويؤيدكم ، واغتبطوا بهذه الدولة المباركة التى لم تعدَموا من الله تعالى معها عيشاً خصيباً ، ولا رأياً مصيباً ، ولا نصراً عزيزاً ولا فتحاً قريباً ، وتضرعوا فى بقائها ، ونصر لوائها ، إلى من لم يزل سميعاً للدعاء مجيباً ، والله عز وجل يجعل البشائر الفاشية فيكم عادة ، ولا يعدمكم ولا أولى الأمر منكم توفيقا وسعادة والسلام الكريم يخصُّكم ورحمة الله تعالى وبركاته) .

— ٥ —

فى المقدمة: يدعو لأهل الأندلس بالسرور وزيادة النعم ، ويرجو لهم أن يتكفل الله بأمورهم فى هذا القطر الغريب ، والمقدمة موجزة مختصرة .

---

(١) سورة هود آية ١٠٢

وفى الموضوع يقول لهم :

أبعث إليكم بالبشرى التى ساقها السلطان إليكم آدام الله نعمه عليكم، وأمتع الله الإسلام بوجوده وبقائه ، وأيده ونصره على أعدائه فى هذا الفتح المبين الذى أعزالله به حركة الجهاد ، وبيض وجوه المؤمنين ، ولقد أظفره الله بفتح مدينة (إطيرة) ذلك البلد الذى فجع فيه المسلمون جميعا بجيعة تحرك الأنفة والكبرياء فيهم ، وتدفع نفوسهم الآبية إلى الجهاد والقتال ، فانتقم الله من الأعداء على يد سلطانكم الذى أعزه الله وبلغه غاية مقصده ونهاية مطلبه فى الانتقام منهم ، وأخذهم بالعذاب الشديد أخذاً شديداً ساقه الله بسيوف السلطان فرويت من دماء الأعداء بما لم يسمع عنه من قبل ، وذلك دون أن يصاب إخوانكم المسلمون بأذى يذكر ، ففتح هنى لكم ، وصنع مضيء بنور الله ولطف خفى ووعد وفى من الله ، فاستبشروا بنعمة الله وتعلقوا به،وانقطعوا لرحمته وقابلوها بالشكر ، ودافعوا عن دينكم « إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم» ويبارك خطواتكم ، واهنئوا بهذه الدولة المباركة التى تحقق لكم العيش الطيب ، والرأى الصائب والنصر العزيز والفتح القريب الميمون . وادعوا الله وهو سميع الدعاء أن ينصرها ويبارك خطواتها .

وفى الخاتمة: يدعو الله أن يجعل البشائر فاشية فى أهـــل الأندلس ، ويدعو لهم بالتوفيق والسعادة ، ثم يسلم عليهم ويودعهم .

والأفكار مرتبة ومحددة وموضوعية . يبشر فيها بالفتح ، ويدعو السلطان، والخطبة اجتماعية سياسية يمكن أن تكون بمثابة رسالة ديوانية ذات طابع سلطانى .

— ٦ —

اشتملت هذه الخطبة على مقدمة مهّد فيها لسان الدين للموضوع بإيجاز ودعا للناس فى اختصار شديد، ثم انصرف إلى العرض وهو الموضوع الأساسى للخطبة فبشر فيها بالفتح، ودعا للسلطان بالخير والبركة ودعا الناس بالعيش فى حياة كريمة فى ظل دولة هذا السلطان، ثم دعا لهم فى الخاتمة بالعيش فى نصر وبشائر وسعادة وهناء، وهذا ترتيب طبيعى وعرض جيد للأفكار.

وهو يكثر من الدعاء لأهل الأندلس بالخير والنصر فى ظل سلطانه الغنى بالله.

ولما كانت هذه الخطبة موجهة إلى سائر الناس، وليس إلى طبقة معينة روعى فيها السهولة واليسر فى الألفاظ والتراكيب فلم نجد لفظا خشنا أو كلمة حوشية، وذلك حتى يسهل فهمها، وتتلاءم مع المناسبة التى قيلت فيها، وهى وجهة سياسية اجتماعية خفيفة دعا فيها الخطيب لدولة سلطانه من خلال هذه المناسبة العظيمة، واستشهد فيها بالقرآن الكريم.

والخطبة متوسطة من حيث الطول والقصر مال فيها لسان الدين إلى الإطناب فى الموضوع دون الاستطراد، والإنعطاف إلى أنواع أخرى جانبية لا تهم السامع بل ربما تصرفه عن الموضوع الأساسى.

ولقد بنيت الخطبة من أولها على السجع المقبول غير المتكلف مع تنويع الفقرات من حيث الطول والقصر. والتزم لسان الدين بالسجع من أول الخطبة إلى آخرها قال:

أمتع الله الإسلام ببقائه، وأيده على أعدائه، ونصره فى أرضه بملائكة سمائه ... إلخ.

وقد يميل إلى الموازنة بين الجمل كقوله :

فتحٌ هنى ، وصنع سنى ، ولطف خفى ، ووعد وفى..

وبها جناس ناقص مثل هنى وسنى وخفى ووفى وخصيباً ومصيباً وعادة وسعادة .

وفيها اقتباس من القرآن الكريم قال تعالى « وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة ، إن أخذه أليم شديد » .

ولم يضمن خطبته شيئاً من الشعر ؛ لأنها — كما ذكرت — موجهة إلى الناس وربما كان فيهم من لم يفهم الشعر ويتذوقه .

والألفاظ والأساليب ملائمة للموضوع بظروفه وملابساته ، ولقد أكثر لسان الدين من الجمل المترادفة التى دعا بها للسلطان ودولته .

والنداء فى قوله : يا أيها الناس للتنبيه ، والأمر للنصيحة والارشاد فى قوله استبشروا ، قفوا ، قابلوا ، استبصروا ، اغتبطوا ، تضرعوا .

وفى مقام التهنئة بالفتح اختار الألفاظ المناسبة لذلك مثل قوله «سروركم أبشركم ، بيض ، هنى ، استبشروا ، بالشكر ، والبشائر الفاشية .

والكلمات واضحة والفقرات متنوعة بين الطول والقصر والأسلوب خبرى وانشائى والغرض من الإنشائى الدعاء للناس والسلطان .

— ٧ —

الصور الخيالية قليلة فى هذه الخطبة، وما جاء منها كان ملائماً للموضوع ومعبراً عن صدق العاطفة، كالاستعارة المكنية فى قوله : « فجع المسلمون بأسرهم فجيعة تثير الحمية، وهى تصور الفجيعة تصويراً حسيا مجسما أثار الحمية وأشعل جذوتها .

وفى قوله : «رويت السيوف من دمائهم الآف عديدة» مبالغة تعبر عن عن كثرة القتلى من الأعداء، وفيها خيال خصب، حيث جعل السيوف كأنها أرض تروى بدماء الأعداء، استعارة مكنية .

وفى قوله : نانتقم الله منهم على يده مجاز مرسل علاقته السببية وليست اليد هى المقصودة، حتى تكون جزءاً مقصوداً استغنى به عن الكل .

وفى قوله «عيشاً خصباً» استعارة مكنية شبه فيها العيش بأرض خصبة كثيرة الإنبات .

وفى قوله : بيض وجوه المؤمنين كناية عن البشر والفرح والسرور، لإرتباط البياض بالخير والهناء .

الموشحات الأندلسية

نشأة الموشحة :

إذا كان الشرقيون قد جددوا فى الأوزان والقوافى الشعرية ، وأتوا بما لم يأت به الخليل بن أحمد من مزدوجات وغيرها فإن أشعارهم (المجددة) فى العصر العباسى (بخاصة) لم تتفق تماماً مع الموشحات ، إذ بقى هذا الفن من حيث نشأته مديناً لأرض الأندلس بأشياء كثيرة مثل الطبيعة والترف والغناء ، وبأشياء سيئة أيضاً مثل إدخال العامية واللكنة الأعجمية إلى حيز الخرجة[1] .

وقد أخذت الموشحة ما تستحقه من شهرة وذيوع وزمن أيضاً ، واختفت الآن اختفاء ربما يكون غير تام ، والذى يذاع فى الوقت الحاضر من موشحات يرجع فى تاريخه إلى العصر الأندلسى .

والموشحة (أو الموشح) ليست عملا أو فناً هيناً فى دنيا القريض ، وتأتى صعوبتها من ضرورة وأهمية التكامل العضوى لها ، فلا يكفى مثلا أن يذكر الشاعر (الوشاح) سطرين أو ثلاثة أو حتى خمسة لنقدم ماذكره ، ونتحدث عنه كموشحة — وفى الشعر الموزون المقفى نعجب كثيراً بما نطالعه فى دواوين الشعراء من مقطوعات صغيرة لا تصل إلى سبعة أبيات .

ويعد الشاعر ابن سناء الملك (ت ٦٠٨ هـ) من أوائل من كتبوا عن الموشحات فى الشرق فضلا عما له من إسهامات إبداعية فى هذا الفن ، وهو ليس أندلسياً ، ونرى كتابه (دار الطراز) واحداً من أهم الكتب

---

(١) القفل الأخير فى الموشحة .

فى إرساء قواعد التوشيح، وقد عرّف ابن سناء الموشحة فى كتابه المذكور فقال : (الموشح كلام منظوم على وزن مخصوص، وهو يتألف فى الأكثر من ستة أقفال وخمسة أبيات ، ويقال له التام ، وفى الأقل من خمسة أقفال وخمسة أبيات ، ويقال له الأقرع . فالتام ما ابتدىء به بالأقفال والأقرع ما ابتدىء فيه بالأبيات)[١] .

إن التعريف السابق مع أهميته لا يزيل ما يكتنف معنى الموشحة من إبهام مع أن هذا الفن سمى بذلك (لما فيه من ترصيع وتزيين وتناظر وصنعة ، فكأنهم شبهوه بوشاح المرأة المرصع باللؤلؤ والجوهر)[٢] .

فالموشحة فن شعرى يحمل ألواناً من التجديد فى القوافى غالباً وفى الأوزان أحيانا ، وإذا تحللت الموشحة من الأوزان تماماً فلا ترتبط عند ذلك بفن الشعر .

نشأت الموشحة بالأندلس استجابة لفن الغناء ، وتجاوباً مع الحياة الإجتماعية فى تلك البلاد بما فيها من غزل وشرب وتطريب . لكن سبباً واحداً ذا أهمية كبيرة فى تقهقر هذا الفن وتوقف نموه ، لا يخرج عن كثرة الإستعانة بالكلمات العامية والألفاظ السوقية والأعجمية والأمثلة الشعبية التى كانت الخرجة تشتمل عليها إرضاء لذوق بعض الناس .

كما كانت الموشحات تعبيراً عن ظروف محددة واستجابة لرغبات

---

(١) فى الأدب الأندلسى للشكعة — ص ٢٧٤ نقلا عن دار الطراز ص ٤٣

(٢) فى الأدب الألسى — د. جودت الركابى — ص ٢٩٣ — ط دار المعارف بمصر .

ومتغيرات البيئة فى الأندلس ، ثم تلاشت كل تلك المتغيرات فخفت صوت التوشيح إلى أن زاد خفوته فى قرون توالى .

وإذا كان الكلام السابق مدركاً ومسلماً به فإننا نرى على الجانب الآخر التجديدات التى أتى بها أبو نواس وأبو العتاهية وديك الجن وغيرهم لم تذهب أدراج الرياح ، وبقيت أشعارهم تلك محل اعتناء عند كثير من النقاد ، واعتبرت مقولة أبى العتاهية : (أنا أكبر من العروض) ذات أهمية كبيرة عند المجددين فى العصور التالية حتى عصرنا الحاضر . وربما كان السبب الرئيسى فى تمسك الأندلسيين بالموشحة هو لغتها السهلة القريبة من أذواقهم ، خاصة إذا اشتملت على ألفاظ عامية ، ولعلهم لم يدركوا مقدار التساهل فى اللغة وخطورته ، لقربهم واختلاطهم بالعناصر الأجنبية القريبة منهم ، ولبعدهم عن الموطن الأساسى للغة الفصحى .

أصل الموشحة :

أثير من سنوات سابقة جدل كبير حول أصل الموشحة ، والمقدمات التى اعتبرت كمدخل إلى هذا الجدل تعود إلى نشأة هذا الفن بالأندلس حيث يجاور العرب فى تلك البلاد شعوباً أخرى لها فكرها وثقافتها ولغتها ، وهم متصلون بماضيهم وحاضرهم فى وقت واحد . . فالكتب تؤلف فى الشرق ، وتحمل إلى الغرب ، ويحدث العكس أيضاً . كما تتقارب الموشحات إلى الشعر الفرنسى الأسبانى الذى كان ينشده جماعة من الشعراء أطلقوا على أنفسهم اسم (التروبادور) Troubadours كما تتشابه الموشحات إلى حد كبير بالأوزان التى تتعامل معها وجدد فيها كثير من المشارقة . ومن المؤكد أن الموشحة لم تتوافق تماماً مع ما قاله وأنشده شعراء

التروبادرر ولن تتوافق أيضاً مع تجديدات المشارقة فى الأوزان ، وأما مسألة الموضوعات فلا تشكل أهمية أو دلالة كبيرة فى هذا الموضوع . ولا نحب أن نحكم عواطفنا فى تأسيس بعض الآراء والدعوة إليها ، كما لا نحب أيضاً أن نقطع الصلة بين الناطقين باللغة العربية فى الشرق والغرب ، ولا أرى أنه بإمكانى حل هذه الإشكالية فى عدد من الصفحات البسيطة ، ولا يكفى أن نقتنع تماماً بما قدمه كثير من المحبين للغتهم سواء أكانوا مستشرقين أم عرباً . ولا خلاف فى أن الموشح فن أندلسى ، لكن هل تأثر فيه العرب بالأسبان أو جاء تطويراً وامتدادا لتجديدات المشارقة ؟ والإجابة على هذا التساؤل لا تخرج — فى غاية الإيجاز — عن واحد من هذين الأمرين وإن كان الكثيرون من الأدباء والنقاد العرب يرون الرأى الثانى ويتعصبون له . وليس هناك ما يمنع — تعبيراً عن وجهة نظرى — أن تكون الموشحة عربية الأصل ، وأنها جاءت تطويراً لأوزان الشعر العربى ثم استفادت وتأثرت بأنماط من الأدب الأسبانى أو الفرنسى إذ أن بعض الشعراء أو جلهم كانوا يعرفون لغة أو أكثر من لغات الغرب ، وقد حدث هذا فى فنون عربية أخرى كالقصة ، فلماذا لا يحدث فى الموشحة أيضاً ؟ . ولا ينبغى أن تثير هذا القضيه أعصابنا خاصة وأنهـا لا تشكل أهمية كبيرة فى تناول الموشحة ودراستها ، ما دمنا لن نختلف على أنها أندلسية المنشأ عربية اللغة (فصيحة أو عامية) ، وأن الموزون منها والمقفى أيضاً يدور فى فلك بعض البحور والأوزان الشعرية القديمة ، على أن الموشح قد تطور مع الزمن حتى استوى على الصورة التى ظهر بها مع أشهر الوشاحين المتأخرين كأمثال ابن زهر وابن سهل ولسان الدين بن الخطيب وغيرهم . (وهكذا أخذ الموشح ابتداء من القرن الرابع الهجرى يزدهر ويسمو فى سماء الأندلس ، وتتابع شعراء وشاحون على جانب من العبقرية كأبى بكر عبادة بن ماء السماء وعبادة القزاز وابن اللبانة والأعمى التطيلى وابن بقى

وابن باجه وأبى بكر بن زهر وابن سهل ولسان الدين بن الخطيب وتلميذه ابن زمرك وغيرهم)[١] .

وبهذا اتضح أن الموشح لم يولد فجأة ، ولم يستو على صورته بين عشية وضحاها ، علماً بأن تلك الصورة ليست ذات وتيرة واحدة ، وإنما تختلف من عصر إلى عصر ، ومن وشاح إلى آخر ، ولكن تبقى الصورة العامة للموشح واحدة ، وبعد هذا البيان نأتى إلى ذكر بعض الأمثلة التى يتضح منها الشكل العام للموشح ، قال الأعمى التطيلى :

ضاحك عن جانْ سافر عن بدر
ضاق عنه الزمان وحواه صدرى
آه مما أجدْ شفنى ما أجدُ
قام بى وقعدْ باطشٌ متئد
كلما قلت قدْ قال لى أين قد
وانثنى خوط بان ذا مهز نضر
عابثته يدان للصبا والقطر

قوله ضاحك إلى صدرى (قفل). والقفل فى أول الموشحة يسمى (مطلع). وقد يبدأ الموشح بدون هذا المطلع ولذا يسمى (الأقرع) وهذا المطلع (القفل) مكون فى النموذج المذكور من أربعة أجزاء ، وللتوضيح وضعت فاصلة بين كل جزء . وغالباً ما يتكون من جزءين ، وقد يصل إلى أحد عشر جزءاً .

وقوله : آه مما أجد شفنى ما أجد ——— يسمى (سمط)

وقوله : قام بى وقعد باطش متئد ——— يسمى (سمط)

---

(١) الأدب الأندلسى — جودت الركابى — ص ٢٩٠

وقوله : كلما قلت قد قال لى أين قد ——— يسمى (سمط)

وكل سمط يتكون (هنا) من جزئين ، وجميع الأجزاء ذات روى متحد، وجميع الأسماط مكتملة تسمى الدور أو الغصن .

وقوله : (وانثنى خوط بان . . إلى نهايته (قفل آخر) وهو مكون من أربعة أجزاء مثل القفل الأول تماماً ، ويسمى كل جزء (غصن) هذا إذا لم يسم الدور غصناً . ويسمى الدور مع القفل الذى يليه بيتاً . والقفل الاخير فى الموشحة يسمى (خرجة) .

غصن ——— ——— غصن (القفل الاول) — المطلع

——— سمط —

——— سمط — الدور (أو الغصن) —

——— سمط — البيت

غصن ——— ——— غصن ———

قفــــل

ولا بد أن تتحد القافية بين الأقفال ، ولا بد أن تتحدد أيضا بين الأسماط (الأجزاء) كما هو واضح فى النموذج السابق .

وهـــذا قسم آخر من موشحة قصيرة لابن مهلهل فى وصف الطبيعة قال :

النهــرُ سلّ حسَاماً على قدود الغصون

والنسيم محـال

والروضُ فيه اختيالٌ

مُـــدت عليه ظلال

والزهـــر شـــق كِمامـــاً   وَجـــدّا بتلك اللحون

أما ترى الطير صـاحا

والصبحَ فى الأفق لاحا

والزهرَ فى الروض فاحا

والبـــرقَ ساق الغمـــاما   تبـــكى بدمع هتُـــون

مع أن هذا النموذج غير مكتمل ، لكن يمكن التعرف منه على أجزاء الموشح ، كما يلاحظ الفرق بين النموذجين السابقين فى الوزن .

ومن المألوف فى هذا الفن أن تأتى الخرجة (القفل الأخير فى الموشحة) بلون متمايز عن سائر الأقفال ، لتحدث فى النفس أثرا نفاذا ووقعا عظيما ، وربما كانت الخرجة بالذات أهم الأسباب فى انصراف الناس عن الموشحات لما تحمل من صياغة مخالفة حيث تكثر فيها الكلمات العامية والأعجمية .

وقد جاءت بعض الموشحات بخرجات فصيحة مثل قول ابن عتبة في موشحته الروضية الخمرية الطريفة :

فقم نباكرُها للاصطباح

والشهب تُنثر من خيط الصباح

والقضبُ ترقص فى أيدى الرياح

الخرجة | على غنـــاء الحـــمام   والكأسُ ذات ابتسام
| والكلام قتيـــل   والصبـــح دامى الحسَام

والخرجة هنا فصيحة أو على الأقل سليمة لغوياً كما هو واضح . وقد تأتى الخرجة وبها كلمة عامية مثل قول ابن بقى (ت . ٥٤٠ هـ) .

قد بلينـــا وابتلينـــا (وإش) يقول الناس فينا ؟[١]
فقم بنا يا نور عيـــنى نجعل الشـــك يقينـــا

وتأتى كلماتها عامية مثل قول ابن اللبانة (ت ٥٠٧ هـ).

الله زانك بالأسمر زين كل عسكر
قد خرجت ياشاطره فى الحرب ظافره

وتأتى الخرجة أحيانا باللكنة الأعجمية، وعند ذلك لا يعرف القارىء وجه المعنى فيها إلا إذا عرف لغة النصارى الأسبان[٢].

أوزان الموشحات :

قسم ابن سناء الملك الموشحات إلى قسمين يختلف كل قسم عن الآخر اختلافاً بيناً، وأهم مظاهر هذا الاختلاف ترجع إلى الوزن واللغة، وقد سار على هذا التقسيم غالبية من جاءوا بعده من قدامى ومحدثين حيث اعتمدوا على كتابه (دار الطراز) اعتمادا كبيرا.

وذكر الأستاذ عمر فروخ نسقين أو نظامين للقسم الأول وسماه (المؤتلف) ويكون عادة فى الموشحات التى على الأبحر المألوفة[٣] وتأتى الموشحات فى هذا النسق على ثلاث درجات :

١ — مفردة مثل الموشحة المنسوبة إلى أبى بكر بن زهر وفيها يقول :

---

(١) وإش : أى شىء؟

(٢) أقدم نموذجا من ذلك نقلا عن كتاب (جيش التوشيح) للسان الدين بن الخطيب.

لمرنى أو كدس ديب حسب سم بغا درد سمين

(ملاحظة) لا أستطيع قراءة هذه الخرجة أو معرفة معناها.

(٣) أكثر الموشحات من بحر الرمل وأجزاؤه (فاعلاتن ست مرات)

أيها الساقي إليك المشتكى   قد دعوناك وإن لم تسمعِ !

ونديم همتُ فى غرته

وبشرب الراحِ من راحته

كلما استيقظ من سكرته

جذب الزقَّ إليه واتكى   وسقانى أربعا فى أربعِ

والمطلع فى هذه الموشحة المفردة يتركب من سمطين (جزءين)، أما البيت وهو المكون من الدور والقفل فيتركب من خمسة أسماط «ثلاثة أسماط على روى واحد ثم سمطين قافية كل سمط منها على روى السمط المقابل له فى المطلع»(١).

٢ — مثناة مثل موشحة إبراهيم بن سهل التى يقول فيها :

هل درى ظبى الحمى أن قد حمىَ   قلبَ صب حله عن مَكنسِ ؟

فهو فى حَرٍّ وخفق مثلما   لعبت ريح الصبا بالقبسِ

يا بدوراً أشرقت يومَ النوى   غرراً تسلكُ بي نحو الغرَرْ

مالنفسى فى الهوى ذنبٌ سوى   منكم الحسنى ومن عينى النظر

أجتنى اللذات مكلومَ الجوى   والتدانى من حبيبى بالفكر

كلما أشكوه شوقى بسما   كالربا بالعارض المنبجس

إذ يقيم القَطرُ فيها مأتما   وهى من بهجتها فى عُرُسِ

فالمطلع مكون من أربعة أسماط (أجزاء) والصدر على روى والعجز على روى مخالف . ثم الدور ويتكون من ستة أسماط ثم القفل (أو القفلة) وتقابل قوافيه قوافى المطلع .

(١) تاريخ الأدب العربى — عمر فروخ ج ٤ ص ٤٣٠ طبعة دار العلم للملايين .

٣ — متعددة مثل موشحة ابن زهر التي قال فيها :

ما للمُولهْ — من سَكرهِ لا يفيق — يا له سكران
من غير خمر — ماللكئيب المشوق — يندب الأوطانْ

* * *

هل تستعادْ — أيامنا فى الخليج — ولياليـنـا ؟
أم يستفاد — من النسيم الأريج — مِسكُ دارينا
وإذ يكاد — حسن المكان البهيج — أن يحيينـا
نهـرٌ أظلهْ — دوحٌ عليه أنيقْ — مورق فينان
والماء يجرى — وعائم وغريق — من جَنى الريحان

والمطلع فى هذا النموذج مركب من ستة أسماط مجزوءة (غير تامة) ، ويتكون الدور من تسعة أسماط . والبيت على اعتبار شموله للدور والقفل يتكون من خمسة عشر سمطاً (ثلاثة أضعاف الموشحة المفردة) .

أما النسق المختلف فهو النوع الذى لا يخضع للوزن العربى مع أنه الكثير أو الجم الغفير ، والعدد الذى لا ينحصر على حد قول ابن سناء الملك .

ومما سبق يتضح أن أجزاء الموشح هى :

١ — المطلع أو المذهب ، ويطلق على مطلع الموشح الذى يتكون عادة من سطرين أو أربعة ، وإذا بدأ الموشح بدون مطلع قيل له الأقرع .

٢ — الدور أو مجموعة الأشطر التي تلي المطلع ، وإن كان الموشح أقرع ، فإن الدور يقع في مستهل الموشح ، والبعض يطلق على الدور اسم الغصن وعند ذلك لا يطلق على أجزاء القفل اسم الغصن .

٣ — السمط: كل شطر من أشطر الدور .

٤ — القفل وهو ما يلي الدور (أو الغصن) مباشرة وتتكون الموشحة عادة من خمسة أقفال بخلاف القفل الأول الذي يسمى المطلع وبهذا تصير الأقفال ستة .

٥ — البيت ويتكون من الدور والقفل الذي يليه .

٦ — الغصن . كل شطر من أشطر المطلع أو القفل ، والمألوف أن تتكون أقفال الموشح ، من أربعة أغصان ، وإذا أطلق الغصن على الوحدة الثانية في الموشح — والتي أطلق عليها اسم الدور — كانت الموشحة متكونة من خمسة أغصان محصورة بين ستة أقفال وهي مجموع الأجزاء في الموشحة .

٧ — الخرجة : وهي آخر قفل في الموشح ، ولا شك في أن هذا الفن قد مر بمراحل عديدة حتى استوى على الصورة التي عرضنا لها .

موضوعات الموشح :

مع تقدم الأندلسيين في هذا اللون الأدبي اتسعت موضوعاته ، وبعد أن كان الكثير منه خارجاً على النظام العربي في الموازين الشعرية صار الوشاحون يكتبون بالمقياس الخليلي في الأوزان ، وإن اختلفت النسق والمعايير أحياناً . وبعد أن كان الهدف منه هو الغناء من خلال فن الغزل تجاوز الوشاحون ذلك وصاغوه في فنون أخرى

مثل المدح والمجون والطبيعة . وأكثرهم يمزج فى موشحة واحدة كل هذه الفنون مجتمعة ، بل ربما أضاف إليها أيضا .

أشهر الوشاحين :

ربما كان مقدّم بن معافى القبريّ (نسبة إلى بلدة قبرة الأندلسية) المخترع الحقيقى لهذا الفن ، وإن لم تذكر الكتب التى تحدثت عنه نماذج لموشحاته ، ومثله تماما فى أولية السبق محمد بن محمود القبرى حتى ظن الكثيرون أن الرجلين شخص واحد إلى أن فرق بينهما أحد المهتمين بدراسة الأدب الأندلسى[1] حيث ذكر أن لكل منهما تراجم مدونة ، وأن الثانى كان ضريراً بينما لم يكن الأول كذلك .

وذكر مؤرخو الأدب أيضا أن من بين المقدمين فى هذا الفن أحمد بن عبد ربه (صاحب كتاب العقد الفريد) ونقف إلى جانب من تشكك فى هذا القول إذ لو كان ابن عبد ربه من الوشاحين يقينا لتمثل ببعض نتاجه فى كتابه (العقد) إلا إذا وجد الرجل فى الموشح انحطاطا أو انحرافا على أعاريض الشعر العربى فنزه كتابه عنه ، ثم جاء فى التسلسل التاريخى للوشاحين عبادة القزاز (شاعر المعتصم ابن صمادح) ويوسف بن هارون الرمادى ، وهذان أيضا لم تصل الينا موشحاتهم .

ويتقدم أبو بكر عبادة بن ماء السماء (ت ٤٢٢ هـ) ، ليكون المنشىء الحقيقى لهذا الفن بما نقل عنه من موشحات ، ثم توالى

---

(١) هو الدكتور عبد العزيز الأهوانى (رحمه الله) .

الوشاحون مثل ابن اللبّانة (محمد بن عيسى الأندلسى) ، (ت ٥٠٧ هـ) والأعمى التطيلى (ت ٥٢٠ هـ) وابن بقىّ (ت ٥٤٠ هـ) وابن زهر الحفيد (ت ٥٩٦ هـ) وابن سهل الإشبيلى (ت ٦٤٩ هـ) . ثم لسان الدين بن الخطيب (ت ٧٧٦ هـ) وتلميذه أبو عبد الله بن زمرك (ت ٧٩٧ هـ) وهما من الوشاحين المتأخرين زمنا المتقدمين فنا وموهبة والممدوح عندهما واحد وهو الغنى بالله ملك غرناطة .

موشحة لسان الدين بن الخطيب

فى الغزل والطبيعة ومـــدح الغنى بالله

جادَكَ الغيثُ إذا الغيث همى يازمان الوصل بالأندلس
لم يكن وصلك إلا حُلما فى الكرى أو خلسة المختلس

• • •

إذ يقودُ الدهر أشتاتَ المنى تنقل الخطو عـلى ما ترْسم
زُمرًا بين فرادى وثنا مثلما يدعو الحجيجَ الموسمُ
والحيا قد جلل الروضَ سنا فثغورُ الزهر فيـه تبسمُ
وروى النعمانُ عن ماء السما كيف يروى مالك عن أنس
فكساه الحسن ثوبا مُعلما يزدهى منه بأبهى ملبس(١)

• • •

فى ليالٍ كتمتْ سر الهوى بالدجى لولا شموس الغرر
مـالَ نجمُ الكأس فيها وهوى مستقيمَ السير سعدَ الأثر
وطرٌ ما فيه من عيب سوى أنه مر كلمح البصر
حين لذ النوم شيئا أو كما هجم الصبحُ هجوم الحرس
غارت الشهب بنا أو ربما أثرتْ فينا عيونُ النرجس

• • •

---

(١) النعمان : هو النعمان بن المنذر ملك الحيرة ، والمراد هنا : شقائق النعمان (زهر) ماء السماء أم المنذر وجدة النعمان والمراد هنا المطر ، مالك: هو مالك بن أنس إمام المدينة وأحد الأئمة الأربعة . أنس : والده والمراد أن رواية مالك عن أبيه أنس رواية صادقة تماما مثل رواية زهر الشقيق عن أبيه وهو المطر الذى جعله نضرا حسن المنظر .

أى شىء لأمرىء قد خلصا   فيكون الروض قد مكّن فيه
تنهب الأزهار فيه الفرصا   أمنتْ من مكره ما تتقيه
فإذا الماءُ تناجَى والحصا   وخلا كل خليل بأخيه
تبصر الوردَ غيورا برماً   يكتسى من غيظه ما يكتسى
وترى الآسَ لبيباً فهما   يسرق السمع بأذنى فرس

• • •

يا أهيل الحى من وادى الغضا   وبقلبى مسكنٌ أنتم به
ضاق عن وجدى رحبُ الفضا   لا أبالى شرقه من غربه
فأعيدوا عهد أنسٍ قد مضى   تعتقوا عيدكم من كربه
واتقوا الله وأحيوا مُغرَما   يتلاشى نفسا فى نفس
حبس القلبَ عليكم كرما   أفترضون عفاءَ الحبس(١)

• • •

وبقلبى منكمُ مقتربٌ   بأحاديثِ المنى وهو بعيدْ
قمر أطلع منه المغرب   شقوةَ المضنى به وهو سعيد
قد تساوى مُحسنٌ أو مذنب   فى هواه بين وعد ووعيد
أحورُ المقلة معسولُ اللمى   جال فى النفس مجال النفس
سدّد السهم فأصمى إذ رمى   بفؤادى نبلة المفترس

• • •

إن يكن جار وخاب الأملُ   ففؤاد الصب بالشوق يذوبْ
فهو للنفس حبيب أولٌ   ليس فى الحب لمحبوب ذنوب
أمرهُ معتملٌ ممتثلٌ   فى ضلوع قد براها وقلوب

(١) الحبس: جمع حبيس والمراد من قوله عفاء الحبس قتلى الحب وهلاكه.

حكم اللحظ به فاحتكما   لم يراقب فى ضعاف الأنفس(١)
ينصف المظلوم ممن ظلما   ويجازى البرّ منهما والمسي

• • •

ما لقلبى كلما هبت صبا   عاده عيدٌ من الشوق جديدْ
جلب الهم لـه والوصبا   فهو للأشجان فى جهد جهيد
كان فى اللوح له مكتتباً   قوله : إن عذابى لشديد(٢)
لاعجٌ فى أضلعى قد أضرما   فهى نار فى هشيم اليبس
لم يدعْ فى مهجتى إلا ذما   كبقاء الصبح بعد الغلس(٣)

• • •

سلّى يا نفس فى حكم القضا   واعمرى الوقت برجعى ومتاب(٤)
ودعى ذكر زمانٍ قد مضى   بين عُتبى قد تقضّت وعتاب(٥)
واصرفى القول إلى المولى الرضى   مُلهم التوفيق فى أم الكتاب(٦)
الكريمِ المنتهى والمنتمى   أسدِ السرْجِ وبدرِ المجلس
ينزل النصرُ عليه مثلما   يُنزَل الوحى بروح القدس(٧)

• • •

(١) والمقصود من قوله : لم يراقب فى ضعاف الأنفس أى لم يراقب الله عندما يقسو على المحبين .
(٢) اللوح : أى لوح قضاء الله .
(٣) الذماء : بقيه الروح ، والغلس : الظلام .
(٤) الرجعى : الرجوع .
(٥) العتبى : الرضى .
(٦) أم الكتاب : الفاتحة أم القرآن كله أو لوح القدر المحفوظ .
(٧) روح القدس : جبريل .

مصطفى الله سمى المصطفى ... الغنى بالله عن كل أحدْ (١)
من إذا ما عقدَ العهد وفى ... وإذا ما فتح الخطب عقدَ
من بنى قيس بن سعد وكفى ... حيث بيت النصر مرفوع العمد
حيث بيتُ النصر محمى الحمى ... وَجنى الفضلِ زكى المغرسِ
والهوى ظلٌ ظليلٌ فيما ... والندى هبٌ إلى المفترسِ

• • •

هاكها يا سبطَ أنصار العلىَ ... والذى إن عثر الدهرُ أقال
غادةَ ألبسها الحسن ملا ... تبهر العين جلاء وصقالْ (٢)
عارضت لفظاً ومعنى وحلىَ ... قول من أنطقه الحب فقال :
«هل درى ظبى الحمى أن قد حمىَ ... قلبَ صب حله عن مكنس
فهو فى حرٍ وخفقٍ مثلما ... لعبت ريحُ الصبا بالقبس»

تعليق ونقد :

١ — امتدح لسان الدين بهذه الموشحة سلطانه الغنى بالله ، ولكنه قبل أن يدلف إلى المدح شرع فى وصف الطبيعه (وزينها بالتوريات اللطيفة ورنقها بالصور البديعة ، وداعب الورد ولاطف الآس ، وتغزل وشكا والتاع كل ذلك حين يجعل هذه المعانى مهادا يلنى من خلالها بباقات المديح التى أراد أن يقدمها لأميره ، ولم ينس لسان الدين حين بسط عليها شيئاً من الفخر) (٣) وهكذا وضح لنا أن الموشحة اشتملت على عدة فنون هى المدح والوصف والغزل والشكوى والفخر وقد تأكد بذلك أن فن التوشيح ليس كالشعر فى هذه الناحية .

(١) سمى المصطفى أى أن اسمه محمد سحاسم النبى ﷺ .
(٢) ملا : أى ملاء جمع ملاءة .
(٣) الأدب الأندلسى — مصطفى الشكعة — ص ٤٢٨

٢ — بالنظر فى القفل الأخير من الموشحة والمعروف باسم (الخرجة) نجده ليس للسان الدين وإنما هو مطلع موشحة أندلسية أخرى للوشاح الكبير ابن سهل .

هل درى ظبي الحمى أن قد حمى قلب صب حله عن مكنس
فهو فى حر وخفق مثلما لعبت به ريح الصبا بالقبس[1]

وقد نقل لسان الدين بهذا الصنيع المعارضة من الشعر إلى الموشحات مؤكداً على الرابطة القوية التى بينهما ، وإن اختلف أسلوب المعارضة بين اللونين .

٣ — وظف لسان الدين الصور الحسية فى التعبير عن المعانى المرادة ، فتجمعت فى موشحته كل مظاهر الطبيعة الأندلسية كمثل قوله :

فإذا الماء تناجى والحصا وخلا كل خليل بأخيه
تبصر الورد غيورا برما يكتسى من غيظه ما يكتسى
وترى الآس لبيبا فهما يسرق السمع بأذنى فرس

ولعلك لا حظت مثلى إبرازه وتشخيصه لمظاهر الطبيعة مثل : تناجى الماء والحصا وقوله : الورد الغيور البرم — الغائظ — المكتسى — الآس اللبيب الفهم الذى يسرق السمع . .) وكقوله :

قمر أطلع منه المغرب شقوة المضنى به وهو سعيد

وتصور محبوبته قمراً تسبب فى شقائه ، لكنه مع ذلك سعيد به ، راض عنه ، وقد تتابعت الصور الشعرية فى هذا الموشح من تشابيه نابضة ، واستعارات بارعة ، ورموز لطيفة ، وأسهمت جميعها فى رسم لوحة بديعة لمظاهر الطبيعة الخلابة .

٤ — استعان الوشاح بألوان مختلفة من المحسنات البديعة التى تتلاءم

---

(١) حمى الحمى : دفع عنه والمقصود المرأة الجميلة ، المكنس : مأوى الظبى .

مع طبيعة الحياة فى الأندلس بما فيها من رياض ورياحين وورود ، وشمس صافية وقمر لامع وأنهار جارية ، وقد استخدم الطباق فى قوله : (بين فرادى وثنا) وقوله : (قد تساوى محسن أو مذنب) وقوله (بين وعد ووعيد) إلخ ، كما استعمل أسلوب التورية (١) أحياناً مثل قوله :

وروى النعمان عن ماء السما   كيف يروى مالك عن أنس

فكلمة النعمان ذات دلالتين الأولى النعمان بن المنذر ملك الحيرة ، والثانية شقائق النعمان (نوع من الزهر) والثانية هى المقصودة ، مع أن الدلالة على المعنى الأول واضحة وهى (ماء السما) جدة النعمان وأم المنذر .

٥ — سبق أن تحدثنا عن أوزان الموشح ، وبينا اختلافها من وشاح إلى آخر ، وللسان الدين باع طويل سواء فى الكتابة أو فى الشعر أو فى التوشيح علماً بأنه ألف كتاباً فى هذا الفن سماه (جيش التوشيح) على أن السبب الرئيسى لنشأة الموشح — كما قيل — هو الغناء ، ولذا صار الخروج على أوزان الخليل أمراً ضرورياً من وجهة نظر الوشاحين ، ولضرورة التطريب حيث يلزم التنويع فى القوافى والتجديد فى الأوزان

---

(١) التورية هى أن يذكر المتكلم لفظاً له معنيان أحدهما قريب ظاهر غير مراد والآخر بعيد خفى وهو المراد كقول صلاح الدين الصفدى :

وصاحب لما أتاه الغنى   تاه ونفس المرء طماعة
وقيل : هل أبصرت منه يدا   تشكرها قلت ولا راحة

فكلمة راحة لها معنيان قريب وهو الكف ، وبعيد وهو ضد التعب والمراد الثانى .

والتغيير فى السلم الموسيقى بهدف كسر الرتابة العروضية وتحطيمها ، ولهذا لم يهتم بالموشحة أكثر النقاد القدامى، نظراً لخروجها على أعاريض الشعر العربى وأوزانه ، إلا أنه من المهم ومن الضرورى أيضاً أن نتبين مقدار هذا الخروج على الأوزان والقوافى ، علماً بأن الوشاحين مختلفون فى هذا القدر ، فالموشحات التى خرجت كلية على الأوزان لم يكن لها موضع أو حديث فى هذه الدراسة ، كما لا ينبغى أن تحتل حيزا فى أية دراسة أدبية اخرى ، وقد صرفنا النظر عن كل تحالل مزرٍ وهوس أحمق ، ولأن الانعتاق من كل قاعدة شر مستطير وداء عضال . أما التجديد فى القواعد والأوزان والتنويع فيها فأمر ليس بمستنكر سواء فى دائرة الشعر أو فى حيز التوشيح ، ولننظر مثلا فى موشح لأبى جعفر بن سعيد حيث يقـــول :

ذهبتْ شمس الأصيل فضـــةَ النهـــر

فنجد أن الشطر الأول صحيح عروضياً إذ يتكون من تفعيلتين من بحر الرمل المجزوء وهما (فاعلاتن فاعلاتن) ثم يأتى الشطر الثانى مختلا من حيث الوزن إذ يتكون من تفعيله واحدة (فاعلاتن) ومعها زيادة (حركة وسكون) أحدثت الخلل الموجود فالنغمة قد تغيرت فى الشطر الثانى لتغير الميزان العروضى فى سطر واحد . ثم يسلم الوزن فى قوله بعد المطلع السابق .

أىّ نهر كالمدامهْ

صير الظل فِدامهْ

نسجته الريح لامه

وثنت للغصن لامه

وترى كل شطر مكوناً من تفعيلتين (فاعلاتن فاعلاتن) ليندوج الوزن تحت مجزوء الرمل، وبالنظر فى موشحة لسان الدين نجدها واحدة من أسلم الموشحات وزناً ، ولا تحمل خروجاً على النظام التقليدى إلا فى دائرة القافية — وهذا الخروج لم يكن لسان الدين مخترعه أو متفرداً فيه ، بل سبق إلى هذا الخروج الذى صار مألوفاً قديماً وحديثاً .

ويقول فى المطلع .

جادك الغيث إذا الغيث همى   يا زمان الوصل بالأندلس
لم يكن وصلك إلا حُلماً   فى الكرى أو خلسة المختلس

وهذا المطلع من بحر الرمل وإذا ضمت إليه بقية الأقفال صارت الأبيات المكونة منها قصيدة موزونة ومقفاة . وأيضا فى قوله :

إذ يقودُ الدهر أشتات المنى   تنقل الخطو على ما ترسم
زمرا بين فرادى وثنا   مثلما يدعو الحجيج الموسم
والحيا قد جلل الروض سنا   فثغور الزهر فيـــه تَبْسِمُ

حيث نراه يلتزم بالوزن وإن تغيرت القافية عن المطلع ، وأيضاً لو ضمت هذه الأدوار أو الأغصان (كما تسمى عند البعض) لنظائرها لاستوت منها قصيدة مكتملة غير مختلف فى سلامتها .

وهكذا أبقى المتأخرون من أدباء هذا الفن على الوزن ، وإن خالفوا فى القافية ، تعبيراً عن أهم الخصائص لفن التوشيح ، وربما كان الغناء أهم سبب لذلك الصنيع .

٦ — فى خاتمة هذه الدراسة نؤكد أن لسان الدين قد أسهم فى الإرتقاء بالموشحات ، سواء من ناحية التصوير أو الألفاظ أو الأوزان

مما حدا بكثير من الأدباء أن يراجعوا موقفهم من هذا الفن — إذ عارضه أكثر المتقدمين ، ثم أقبل عليه أكثر المتأخرين .

وعندما هوت الأندلس ضاعت معها أحلام كثيرة وأمانٍ عديدة ، ولم تكن الموشحات إلا واحدة من تلك الأحلام القديمة التي هبت عليها الرياح العاتية من الغرب ومن الشرق أيضاً .

« ملحق »

من روائع الأدب فى عصر المماليك

قصيدة البردة للبوصيرى

عاش البوصيرى فى القرن السابع الهجرى « الثالث عشر الميلادى » ذلك القرن الذى تعرض فيه العالم الإسلامى لغزو التتار الوحشى ، وشعر العرب بالخوف من ذلك العدو الذى سعى فى الأرض فساداً وتقتيلا ، وانتهت معه الخلافة العباسية من بغداد سنة ست وخمسين وستمائه من الهجرة .

وفى مصر حيث عاش البوصيرى قُتل سلطانها « المعز أيبك » بتدبير زوجته « شجرة الدر » ، وتولى ابنه المنصور الأمر من بعده ولكنه لم يكن على مستوى الكفاءة فخلعه قطز واستعد لملاقاة التتار وحاربهم وانتصر عليهم فى موقعة « عين جالوت » ثم قفز الظاهر بيبرس إلى عرش الحكم والسلطنة بعد اغتيال قطز ، وهكذا بدأت دولة المماليك فى مصر بالإقالات والاغتيالات ، والشىء الذى يذكر لهم بكل تقدير وإعجاب أنهم حموا مصر ، ودافعوا عنها من الغزو التترى المبيد .

ولقد خلف الصراع بين فئات المماليك اضمحلالا فى الحياة الأدبية والفكرية ، وفساداً فى الحياة الاجتماعية ، ولجأ كثير من الناس إلى الدعة والتواكل .

وفى هذا الجو القاتم والمجتمع المنهار عاش البوصيرى الذى قدم للناس وللمتصوفين بخاصة مجموعة من قصائد المديح النبوى ، وكانت البردة أشهر

وأسير هذه القصائد ، وربما كانت أهم قصيدة بين المدائح النبوية على الإطلاق ، ولهذا اخترتها كنموذج للشعر فى عصر المماليك .

التعريف بالبوصيرى :

هو الإمام شرف الدين أبو عبد الله محمد بن سعيد بن حماد ، الذى ينتهى نسبه إلى قبيلة صنهاجة وهى قبيلة عربية ، كانت تعيش فى المغرب ، وقد استوطنت مصر ، وكان أبوه من قرية « بوصير » وأمه من قرية « دلاص » وهما بصعيد مصر ، وكانوا يطلقون عليه « الدلاصيرى » جامعين فى نسبه بين بلد أبيه وبلد أمه ، ثم غلب عليه لقب « البوصيرى » فعرف به .

وكانت ولادته ببوصير على الأصح سنة ٦٠٨ ﻫ ونشأ فى أسرة فقيرة لم يتمكن معها من بدء حياته بداية طبيعية ، فارتحل إلى القاهرة ، وحفظ القرآن الكريم بأحد المساجد ، وتلقى به العلوم الدينية ، وشيئا من علوم اللغة كالنحو والصرف والعروض ، كما درس الأدب وجانبا من التاريخ الإسلامى ، وبخاصة السيرة النبوية واتخذ من المسجد مركزا للتثقيف والتهذيب ، وظهرت موهبته فى قرض الشعر ، فأخذ يتقرب من بعض الأمراء والوزراء ويمدحهم بشعره . وعرضت عليه وظيفة « محتسب القاهرة » فاعتذر عنها لأنه كان يرى عدم صلاحيته لهذه الوظيفة ، لأن المحتسب لا بد أن يكون عارفا بالفقه خبيراً بأحوال الأسواق وأنواع التجارة وألاعيب التجار ، وما يتعلق بالبيع والشراء من متابعة ومراقبة ، ولابد له من الطواف فى الأسواق وتوقيع العقوبة على الناس من شتم وضرب ، والبوصيرى يخشى أن يكون ظالما ، فأعرض عن هذه الوظيفة وفضل أن يقوم بعمل حسابى نظراً لإتقانه ومعرفته الكبيرة بهذا النوع من الأعمال .

ولقد عاش حياة زوجية معقدة لكثرة أولاده ، واستمرار الخصومة مع زوجته مدة طويلة . ويبدو أن إخفاقه فى حياته العملية انعكس على حياته فى بيته ، واضطر أمام ذلك لقبول وظيفة كتابية فى بلبيس بالشرقية ، ولم تطل إقامته فيها فعاد منها إلى القاهرة ومكث بها دون أن يظفر فيها بوظيفة يعيش منها فاضطر إلى فتح كتاب لتحفيظ القرآن الكريم .

ولعل ربحه من هذا الكتاب كان زهيداً لا يكفى حاجته وحاجة أولاده وزوجته فأغلقه ، وخرج من القاهرة سعيا وراء الرزق ، وذهب إلى المحلة ليتكسب بشعره ، ومدح حاكمها ، وهناك أصيب بكسر فى ساقه ، فرجع إلى القاهرة ، وأعاد فتح كتابه ، وهكذا عاش البوصيرى حياة مضطربة غير مستقرة لإخفاقه فى حياته العملية ، وعدم إنسجامه مع الناس ، وقلقه الدائم فى بيته .

وقيل: إن أخلاقه كانت سيئة ، وأنها كانت سببا فى هذا الإخفاق ، ويمكن أن نعثر فى بعض شعره ما يؤكد هذا القول .

وقد تغير الرجل مع الزمن ، فاخلص لفنه الشعرى ، وتشرب تعاليم أبى الحسن الشاذلى ، وأصبح من أتباعه ، وأخذ ينافح عن الصوفية ، ولما مات الشاذلى بصحراء عيذاب سنة ٦٥٦ هـ وانتقلت رياسة طريقته إلى تلميذه المخلص أبى العباس المرسى وهو من الأنصار التقى به البوصيرى بالاسكندرية ، ولزم صحبته وأخذ عنه وتتلمذ — مع كبر سنه فى هذا الوقت — على يديه ، وكان يزوره بالاسكندرية من حين إلى آخر حتى توفى أبو العباس سنة ٦٨٦ هـ(١) .

---

(١) وكان ابن عطاء الله السكندرى صديقا للبوصيرى وزميلا له فى الأخذ عن أبى العباس المرسى .

وقد أدى البوصيرى فريضة الحج ، وتحسنت أحواله ، واتجه إلى المديح النبوى إلى أن توفى بالقاهرة وقيـــل بالإسكندرية فى سنة خمس وتسعين وستمائة ، وله قبر مشهور بالاسكندرية يتصل به مسجد كبير ، وإلى جواره أبى العباس المرسى .

كان البوصيرى يقف كثيراً إلى جانب ذوى السلطان ، ويبدو من شعره أنه كان يحب حياة الدعة ويرى من حقه على الناس أن يحملوا إليه كل ما يحتاجه من أسباب العيش ، وكان صوفيا مخاصاً لأساتذته وكان كريماً ، ولعل كرمه أو سوء تدبيره للمال كان من أسباب فقره وإملاقه .

شـــعره

تأثر البوصيرى بالتصوف تأثراً كبيراً ، وحققت مدائحه النبوية شهرة كبيرة ، وسما بها سموا لم يوفق إلى معشاره فى سائر شعره ، وكان هذا أثراً لصدق العاطفة وروح التصوف التى عرف بها .

وشعره بعامة صورة ناطقة ومعبرة عن عصره وحياته ، وهذه هى أهم أغراض شعره .

١ — المـــدح :

برع البوصيرى فى هذا اللون الشعرى أكثر من أى لون آخر ، فلقد مدح الرسول وآل البيت ، ومدح الأمراء والأعيان ، وأفاض فى مدحه الصوفيين ، وكان الرجل يبالغ فى مدحه ، ويسرف فى توزيع الصفات الطيبة والخصال الحميدة على كل صاحب يد امتدت إليه بالعطاء مع أن التصوف الحقيق يلزمه بألا يقول إلا مايعتقد صحته وصوابه بصرف النظر

عن البذل والعطاء ، وإنا لنراه صادقا فى كثير من مدائحه مثل قوله لأبى العباس المرسى يمدحه ويعزيه فى وفاة شيخه أبى الحسن الشاذلى :

كَتَبَ المشيبُ بأبيضٍ فى أسودِ
بغضاً ما بينى وبين الخُرَّدِ

خجلت عيونُ الحور حينَ وصفْتها
وصْفَ المشيب وقلن لى : لا تبعُدِ

والقصيدة كلها فى التصوف والإشادة بمناقب المرسى .

٢ — الهجاء :

كان الهجاء عند البوصيرى موجها فى معظمه إلى الموظفين ، لاشتغاله معهم بالكتابة ، فحديثه عنهم حديث العارف الخبير ، لأنه عاشرهم زمنا طويلا ، ووقف على أسرارهم ووجدهم كلهم على غير الصراط المستقيم ، قال :

نَقَدتُ طوائف المستخدمينا
فلم أرَ فيهم رجلا أمينا

فخذ أخبارَهم منى شِفاهًا
وأنظِرنى لأُخبرَك اليقينا

فقد عاشرتهم ولبثت فيهم
مع التجريب من عمرى سنينا

فكم سرقوا الغِلالَ وما عرفنا
بهم فكأنهم سرقوا العيونا

ولولا ذاك ما لبسوا حريراً
ولا شربوا خمور الأندرينا

والقصيدة طويلة ، وأبياتها تسعة وتسعون ، استغل الشاعر فيها طول نفسه فى الشعر لينقد هذه الطبقة ، كما هجا فى قصائد أخرى طبقة الفقهاء الذين أنكروا على المتصوفة مزاعمهم وأراءهم التى ينشرونها بين العامة .

٣ — الرد على النصارى واليهود وكانت ردوده عليهم حول المعتقدات والمبادىء التى تقوم عليها الديانتان .

قال فى قصيدة سماها « المخرج والمردود على النصارى واليهود » :

جاء المسيح من الإله رسولاً
فأبى أقلُّ العالمين عقولا
قومٌ رأوا بشراً كريماً فأدعوا
من جهلهم لله فيه حُلولا

وعند عرض القصائد من هذا اللون يجد الشاعر أن النظم لا يسعفه بالرد فيستعين بالنثر حتى يتمكن من بسط آرائه وشرح ردوده .

٤ — الدعابة :

لقد اشتهر البوصيرى بالفكاهة ، وكانت الظروف قد أحوجته إلى المال ، ولم يكن بحال تسمح له بهجاء من يمتنع عن إعطائه فكان يلجأ إلى الدعابة استدرارا لعطفه ، وربما مزج مدحه بالدعابة التى تترك أثرها فى نفس الممدوح فيكثر ويضاعف فى العطاء .

فالشاعر قد سخّر هذا الفن للاستجداء وطلب العطاء ، وقد غلب عليه هذا اللون فأصبح يقواه وينشده من غير أن يكون الاستجداء سبباً له .

قال يداعب بهاء الدين بن على من قصيدة طويلة :

إليك نشكو حالنا إننا
عائلةٌ فى غاية الكثرة

أحدثُ المولى الحديث الذى
جرى عليهم بالخيط والأبرة

صاموا مع الناس ولكنهم
كانوا لمن يُبصرهم عِبرةْ

إن شربوا فالبئر زِيرٌ لهم
ما برحت والشَرْبة الجرةْ

لهم من الخبز مسلوقة
فى كل يوم تشبه النشرةْ

أقول مهما اجتمعوا حولها
تنزهوا فى الماء والخضرةْ

مدائحه النبوية

إذا كان معظم شعر البوصيرى فى المدح ، فإن أكثر هذا المدح كان موجها للرسول ﷺ ، ومن هذه المدائح :

١ — القصيدة التى عارض بها قصيدة « بانت سعاد » لكعب ابن زهير ، والتى سماها « ذخر المعاد فى معارضة بانت سعاد » ويقول فى أولها :

إلى متى أنت باللذات مشغولُ
وأنت عن كل ما قدّمتَ مسئول

وأبياتها مائتان وأربعة عشر .

٢ — الهمزية واسمها « أم القرى فى مدح خير الورى » وأبياتها أربعمائة وسبعة وخمسون بيتاً — يقول مطلعها :

كيف ترقى رقيك الأنبياءُ
يا سماء ما طاولتها سماء
لم يساووك فى علاك وقد حا
لَ سنا منك دونهم وسناء
إنما مثلوا صفاتك للنا
سِ كما مثل النجومَ الماءُ

٣ — البردة :

لقد أطلق البوصيرى عليها « الكواكب الدرية فى مدح خير البرية » وليس ببعيد أن يكون البوصيرى قد كناها بالبردة لاشتمالها على مناقب الرسول ، ويكون بذلك قد قصد المعنى المجازى لا أكثر (١) وأبياتها اثنان وثمانون ومائة بيت ، وهى من بحر البسيط ، وأغلب الظن أن البوصيرى استأنس عند نظمها بميمية ابن الفارض التى يقول أولها :

هل نارُ ليلى بَدت ليلا بذى سلم
أم بارقٌ لاح فى الزوراء فالعَلَمِ

ومطلع بردة البوصيرى :

أمن تذكّر جيران بذى سَلَم
مَزجتَ دمعاً جرى من مقلة بِدمِ

---

(١) البردة حقيقة هى قصيدة كعب بن زهير التى أنشدها فى حضرة الرسول ﷺ .

وفيها يقول :

فالصدق فى الغار والصديق لم يَرِمَا
وهم يقولون ما بالغار من أرِمِ *

ظنوا الحمام وظنوا العنكبوت على
خير البرية لم تَنسجْ ولم تحُمِ

وقاية الله أغنت عن مضاعفة
من الدروع وعن عالٍ من الأطمِ

ولقد بدأها بالنسيب ثم انتقل إلى التحذير من هوى النفس، وتخلص من ذلك إلى مدح الرسول ﷺ ، وتكلم عن مولده ومعجزاته ، وتحدث عن الإسراء والمعراج والجهاد فى سبيل الله ، ثم أنهاها بالتوسل والمناجاة .

ولقد اخترت منها الأبيات التالية :

— ١ —

١ — أمِنْ تذكر جيرانٍ بذى سلم
مَزَجت دمعاً جرى من مقلة بدم

٢ — أم هَبت الريح من تلقاء كاظمة
وأومض البرق فى الظلماء من إضَمِ

---

* — لم يرما : لم يبرحا . وأرم على وزن كتف : العلم والأثر .

(١) ذو سلم : واد فى طريق البصرة إلى مكة . المقلة : شحمة العين التى تجمع البياض والسواد .

(٢) كاظمة : جوّ على سيف البحر فى طريق البحرين من البصرة، أومض البرق : لمع لمعاناً خفيفاً ولم يعترض فى نواحى الغيم . إضم : واد بجبال تهامة ، وهو الوادى الذى فيه المدينة .

٣ — أيحسب الصبُّ أن الحب منكتمٌ
مابين منسجم منه ومُضطرم

٤ — يالائمى فى الهوى العذرى معذرةً
منى إليك ولو أنصفت لم تلم

٥ — عدتك حالى لا سرى بمستتر
عن الوشاة ولا دائى بمنحسم

٦ — محّضتَنِى النصح لكنْ لست أسمعه
إن المحب عن العُذال فى صَمَم

— ٢ —

٧ — فإن أمارتى بالسوء ما اتعظت
من جهلها بنذير الشيب والهَرَم

٨ — فلا تَرُم بالمعاصى كسر شهوتها
إن الطعام يقوِّى شهوة النَّهِم

---

(٣) الصب : العاشق المشتاق . المنسجم : الدمع السائل . والمضطرم : القلب المشتعل بالحب .

(٥) عدتك : تجاوزتك . منسجم : منقطع .

(٦) محضتنى النصح : أخلصته . العذال : اللائمون . صمم : انسداد الأذن وثقل السمع .

(٧) الأمارة بالسوء : النفس ، الهرم : كبر السن وقد (هَرِم) من باب طرب فهو (هَرِمٌ) .

(٨) لا ترم : لا تقصد ولا تطلب . النِهم الذى يشتهى الطعام ولا يشبع، والنَهَم : إفراط الشهوة فى الطعام .

٩ — والنفسُ كالطفل إن تهمله شب على
حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم
١٠ — كم حسنَت لذة للمرء قاتلةً
من حيث لم يدر أن السم فى الدسَم

— ٣ —

١١ — ظلمْتُ سنة من أحيا الظلام إلى
أن اشتكت قدماه الضر من ورَم
١٢ — هو الحبيب الذى ترجى شفاعته
لكل هول من الأهوال مُقتحم
١٣ — دعا إلى الله فالمستمسكون به
مستمسكون بحبل غيرِ منفَصِم
١٤ — أعيا الورى فهم معناه فليس يرى
فى القرب والبعد فيه غير مُنفَحِم
١٥ — كالشمس تظهر للعينين من بُعُد
صغيرة، وتُكلُّ الطرف من أَمَمِ
١٦ — وكيف يدرك فى الدنيا حقيقته
قومٌ نيامٌ تسلوا عنه بالحُلُمُ

---

(١٠) الدسم كل شيء له ودك من اللحم والشحم .
(١٣) منفصم : مقطوع ، فصم وانفصم : كسر الشيء من غير أن يبين .
(١٤) المنفحم : الساكت عجزاً عن المناظرة .
(١٥) تكل : تتعب . أمم : قرب ،
(١٦) الحلم : رؤى النائم .

١٧ — فمبلغ العلم فيه أنه بشرٌ
وأنه خير خلق الله كلِّهم

١٨ — أكرم بخَلقِ نبي زانه خُلقٌ
بالحسن مشتمل بالبشر مُتَّسِم

١٩ — كالزهر في ترف، والبدر في شرف
والبحر في كرم، والدهر في هِمَم

— ٤ —

٢٠ — آياتُ حق من الرحمن مُحدَثَةٌ
قديمةٌ صفة الموصوف بالقِدَم

٢١ — لم تقترن بزمان وهي تخبرنا
عن المعاد وعن عاد وعن إرم

٢٢ — دامت لدينا ففاقت كل معجزة
من النبيين إذ جاءت ولم تَدُمِ

٢٣ — ما حوربت قطُّ إلا عاد من حَرَب
أعدى الأعادي إليها مُلقِيَ السَّلَمِ

٢٤ — ردت بلاغتها دعوى معارضها
رد الغيور يد الجاني عن الحُرَم

---

(١٧) مبلغ العلم : غايته .

(١٨) خَلق : تكوين وتقدير ، وخُلق : سجية وطبيعة . متسم : متصف .

(١٩) ترف : تَنعم . الهمم : العزائم .

(٢٠) محدثة : إنزالها محدث .

(٢٣) السلم : الاستسلام .

(٢٤) الحرم : المحارم .

٢٥ — لا تعجبن لحسود راح ينكرها
تجاهلا وهو عين الحاذق الفهِمِ

٢٦ — قد تنكر العينُ ضوءَ الشمس من رمد
وينكر الفم طعم الماء من سَقَمِ

— ٥ —

٢٧ — سريتَ من حرم ليلا إلى حرمِ
كما سرى فى البدر داجٍ من الظُّلَمِ

٢٨ — وبت ترقى إلى أن نلت منزلة
من قاب قوسين لم تُدرَك ولم تُرَمِ

٢٩ — فخرت كل فخار غير مشترك
وجزت كل مقام غير مزدحم

٣٠ — لما دعا اللهُ داعينا لطاعته
بأكرم الرُّسل كنا أكرم الأممِ

* * *

---

(٢٥) الحاذق : الماهر .

(٢٦) سقم : مرض .

(٢٧) ليل داج : مسود بسبب الغيم . ظُلَم مفردها ظلمه وهى ذهاب النور .

(٢٨) رام الشىء : طلبه ، ولم ترم : لم تقصد .

٣ — مناسبة القصيدة

ذكر البوصيرى سبب وضعه للبردة فقال: «كنت قد نظمت قصائد فى مدح رسول الله ﷺ، ثم اتفق بعد ذلك أن أصابنى فالج أبطل نصفى ففكرت فى عمل قصيدتى هذه: البردة، فعملتها، واستشفعت بها إلى الله عز وجل أن يعافينى، وكررت إنشادها، وبكيت، وتوسلت به، ونمت، فرأيت النبى ﷺ، فمسح وجهى بيده المباركة، وألقى علىَّ بردة، فانتهيت ووجدت فى نهضة، فخرجت من بيتى، ولم أكن أعلمت بذلك أحداً، حتى لقينى بعض الفقراء فقال: أريد أن تعطينى القصيدة التى مدحت بها رسول الله ﷺ فقلت: أيها؟ فقال: التى أنشأتها فى مرضك، وذكر أولها وقال: والله لقد سمعناها البارحة وهى تنشد بين يدى رسول الله ﷺ، ورأيته ﷺ يتمايل وأعجبته وألقى على من أنشدها بردة فأعطيته إياها، وذكر الفقير ذلك فشاع المنام..»(١).

وذكر البوصيرى فى هذا الحديث أن البردة كانت سبباً فى شفاء سعد الدين الفارقانى عندما أصيب برمد وألقاها على عينيه فبرئتا، وعادت لهما السلامة.

وقد سميت هذه القصدة بالبردة، وذلك لأن البوصيرى برىء بها من علته، وقد سميت بقصيدة الشدائد، وذلك لأنها عند بعض الصوفيين تقرأ لتفريج الشدائد.

ولقد كان ما حكاه البوصيرى سبباً فيما سار بجانب البردة من حكايات خيالية، ومن ذلك ماذكر أنه لما وصل إلى قوله: فمبلغ العلم

---

(١) ديوان البوصيرى ص ٢٩١ تحقيق محمد سيد كيلانى طبع مصطفى الحلبى بمصر.

فيه أنه بشر ، توقف ، فقال له النبى : قل يا إمام ، فقال البوصيرى : إنى لم أوفق للمصراع الثانى فقال النبى : قل يا إمام : وأنه خير خلق الله كلهم .

فأدرج البوصيرى هذا المصراع فى قصيدته .

ولابد أن نذكر أن كثيراً من الحكايات المروجة حول البردة كانت مختلقة ومن صنع الخيال ، فالبوصيرى كان طويل النفس فى مدائحه النبوية ، وغير معقول أن ينظم ما نظم ، ثم يعجز عن إكمال البيت السابق مع أن عجزه ورد فى صدر بيت بإحدى قصائد الصرصرى المتوفى سنة ٦٥٦ هـ ، وفيه يقول : —

محمد خيرُ خلق الله كلهم
وهو الذى لِفخار المجد ينتسب

أما دعوى إصابته بالفالج فغير قائمة لأن الرجل لو أصيب بهذا المرض ما تمكن من إنجاب أولاده الكثيرين، ولو كانت البردة تصلح للعلاج من الأمراض لكان الأولى للشاعر أن يتعالج بها .

مع إننا لا نغفل الجانب النفسى وأثره فى الشفاء من الأمراض، ولكن المسألة دخلتها مبالغات وربما خرافات لا يقرها الإسلام.

٤ — شرح الأفكار

١ — الأبيات (١—٦) فى النسيب .

ذكر البوصيرى أنه لا يدرى إن كان سقوط الدمع المختلط بالدم بسبب تذكره لأهل ذى سلم أم بسبب هبوب رياح الحب من ناحية كاظمة أو للمعان البرق من ناحية إضم .

وذكر أن المشتاق لا يستطيع أن يكتم حبه ما دامت هناك مقل تفضح وقلوب تشتعل بالحب .

واعتذر إلى من يلومه فى هذا الحب العذرى الطاهر ، وطلب منه أن يترفق به وينصفه فلا يلومه أو يعاتبه لأن حاله — أى حال الشاعر — تجاوزت اللائم ، وأصبح سره مكشوفاً للوشاة مع أن داءه لم يحسم بعد.

ثم قال : لقد أخلصت لى النصح ولكننى لا أسمعه ولا أعمل به ، لأن المحب لا يستمع ولا يستجيب لما يقوله العذال .

٢ — الأبيات (٧—١٠) فى حساب النفس .

تخلص الشاعر من النسيب إلى حساب النفس فذكر أن نفسه لم تتعظ لجهلها بكبر السن وانهزام العمر . وقال أن القضاء على شهوة هذه النفس الأمارة بالسوء يكون بترك المعاصى ، مثل القضاء على شهوة النهم لا يكون إلا بترك الإسراف فى الطعام .

ونفس الإنسان كالطفل . فإذا أهمل ، ولم يعتد به ، شب على حب الرضاع ونشأ معتمداً على الآخرين ، وهذا ضرر كبير ، وإن اعتنى به ، ونطم عن اللبن استجاب وامتثل ، وكذلك النفس إن تركها الإنسان على هواها أمعنت فى ارتكاب المعاصى ، وإن هذبها وانتصر عليها امتثلت هى الأخرى ، ولزمت الهدوء والصواب .

إن النفس كثيراً ما تحسن للمرء لذة قاتلة ، وهو لا يدرى أن فى هذه اللذة سما زعافا .

٣ — الأبيات (١١ — ١٩) فى مدح النبى .

انتقل البوصيرى من حساب النفس إلى مدح الرسول ﷺ ، فذكر

أنه أى الشاعر بارتكاب المعاصى ظلم سنة رسول الله الذى أحيا قيام الليل حتى تورمت قدماه ، وأنه الحبيب المرجو الشفاعة لكل هول من الأهوال ، وأن المستمسكين به مستمسكون بحبل غير مقطوع .

ولقد تعب الناس فى فهمه ، وبدا للقريب والبعيد بليغاً غير عاجز عن الإفصاح والتبيين ، وهو مثل الشمس تبدو كأنها صغيرة على البعد ثم تتعب العين عند القرب منها .

والرسول ربما لا يقدره البعيد عنه لكن من يقترب منه سوف يتعب ويفحم ، وسوف يعجز عدوه عن فهم حقيقته ، لأنهم خامدون انصرفوا عنه وانشغلوا بالتفكير فى أحلامهم — مع أن غاية علمنا فيه أنه بشر ، وأنه خير خلق الله كلهم .

ويتعجب البوصيرى من كرم خلقه لتزينه بالأخلاق واشتماله على الحسن واتصافه بالبشر كالزهر فى تنعمه ، وكالبدر فى علو مكانته ، وكالبحر فى كرمه وسمته ، وكالدهر فى عزائمه وقدراته .

٤ — الأبيات (٢٠—٢٦) عن القرآن الكريم .

يقول : إن آيات القرآن حق ، نزلت محدثة من عند الله ، وهى قديمة أزلية ، لأنها كلام الله ، وهى غير مختصة بزمن معين ، فهى تحدثنا عن المستقبل كيوم القيامة ، وتخبرنا عن الماضى كعاد وإرم ذات العماد ، وهى تعيش معنا فى حاضرنا ، وقد فاقت كل معجزات الأنبياء التى لم يتحقق لها الدوام والاستمرار .

وما دخل أحد معها فى حرب إلا وعاد إليها مستسلماً لها ، ولقد ردت بلاغتها وفصاحتها على من يعارضها رداً قوياً عنيفاً ، مثلما يرد الغيور يد

من يعتدى على أهله ومحارمه ، ولا تتعجب للحسود الذى ينكرها فإنه يفهمها بحذق ومهارة لكنه يتجاهلها مثلما تنكر العين المصابة برمد ضوء الشمس مع أن ضوءها لا ينكر ، ومثلما لا يستعذب الفم المريض طعم الماء والعيب ليس فى الماء وإنما فى فم المصاب .

٥ — الأبيات (٢٧—٣٠) فى الإسراء والمعراج .

يناجى البوصيرى الرسول فيقول له : لقد سريت من الحرم المكى إلى الحرم القدسى مثلما سرى البدر فى الظلام المطبق وارتقيت فى المعراج بين السموات حتى كنت قاب قوسين من عرش الرحمن ، ولم يدركك أحد فى هذه المكانة .

وحزت كل الفخر الذى لا يشاركك فيه أحد ، وجزت كل مقام غير مزدحم فى الأفق الأعلى ، وكان ذلك بدعوة من الله ، وكنا أكرم الأمم لأن نبينا هو أكرم الأنبياء والرسل .

٥ — مناقشة الأفكار

١ — بدأ البوصيرى بردته بالنسيب ، وتلك عادة عربية قديمة التزم بها أكثر الشعراء ، وإن كان بعضهم قد عابها كالمتنبى الذى قال : —

إذا كان مدحٌ فالنسيب المقدم
أكل فصيح قال شعراً متيم ؟

ولقد حرص صاحب البردة على متابعة القدماء ، ورأى أن كعب بن زهير بدأ قصيدته فى مدح الرسول بالنسيب ، فقال :

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول
متيم إثرها لم يفد مكبول

فالنسيب فى أول البردة ليس مقصوداً لذاته بل كان الشاعر محاكياً ومقلداً ، والأماكن المذكورة فى المطلع تدل على أن قلبه كان خاليا من الصبابة والعشق ، عامراً بحب الرسول ، لأنه اختار الأماكن التى تتصل اتصالا وثيقاً بالأماكن التى ولد فيها الرسول ﷺ .

ومع خلو قلبه من الهيام والصبابة إلا أنه أجـــاد فى بعض الأبيات كقوله :

أيحسب الصب أن الحب منكتم
ما بين منسجم منه ومضطرم

وقوله : نعم سرى طيف من أهوى فأرقنى
والحب يعترض اللذات بالألم

٢ ـ أحسن الشاعر التخلص من النسيب إلى التحذير من هوى النفس ثم إلى مدح الرسول، وأجاد فى التحذير من هوى النفس عندما قال :

والنفس كالطفل إن تهمله شب على
حب الرضاع ، وإن تفطمه ينفطم

كم حسنت لذة للمرء قاتلة
من حيث لم يدر أن السم فى الدسم

وذكر بعض الأمثال كقوله :

إنّ الطعام يقوى شهوة النهم

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد

٣ — الأبيات (١١ — ١٩) التى مدح بها الرسول كانت من أقوى أبيات البردة جميعا ، وإن كان متأثراً فيها بالأقدمين كقوله :

أعيا الورى فهمُ معناه فليس يرى
في القرب والبعد فيه غيرُ منفحم

كالشمس تظهر للعينين من بعد
صغيرة وتكل الطرف من أمم

ثم وصفه أبلغ وصف ، وذكر أن غاية مايقال فيه أنه بشر ، وأنه خير خلق الله جميعا .

فمبلغ العلم فيه أنه بشرٌ
وأنه خير خلق الله كلهم

ونلاحظ أن الأفكار واضحة ، ولا غموض فيها ، ولهذا سارت القصيدة مع الركبان وحفظها الصوفيون ، وتدارسها الأدباء والنقاد ، والأفكار على جانب عظيم من الدقة والعمق ، وإن كان البوصيرى متبعا ومحاكياً فيها لمن سبقوه من شعراء المديح النبوى .

والأفكار مترابطة ، والشاعر ينتقل من فكرة إلى فكرة انتقالا حسناً .

وهكذا تبدو البردة مترابطة متسلسلة كل فكرة فيها تؤدى إلى مابعدها بدقة وانسجام .

٦ — الألفاظ والأساليب

عمد البوصيرى فى البردة إلى الألفاظ السهلة اللينة التى تتلاءم مع مدح الرسول — صلى الله عليه وسلم — ولم نجد فى الأبيات التى اخترناها خشناً غريباً. فجاءت مفرداته عذبة رقيقة مناسبة فى سهولة ويسر. وكشفت الأبيات عما بداخله من حب الرسول — صلى الله عليه وسلم — كقوله :

« المحب — حب الرضاع — دو الحبيب ، زانه — أكرم الرسل لخوت — نجوت — إلخ .

واختار فى النسيب أسماء الأماكن التى تتصل بمولد الرسول « ذو سلم كاظمة — إضم » .

وقوله بنذير الشيب والهرم يفيد أن الشاعر نظم هذه البردة فى زمن الاكتهال، والبوصيرى يلجأ فى هذه القصيدة إلى الاطناب ، وذلك لبسط الجوانب المختلفه التى مدح بها الرسول .

وصاحب البردة لديه قدرة عجيبة فى إيجاد المعانى التى يمتدحه بها ، ثم تتضح براعته ومهارته فى صياغتها صياغة محكمه مع التنويع فى أسلوبه بين الخبر والإنشاء ، كما أنه يحرص حرصاً شديداً على قوة المعانى وروعة الأساليب ، فنجده يؤكد كلامه بأكثر من لون ومنها « إن » التى أكثر منها مع الجملة الإسمية لإثبات وتأكيد الدوام والاستمرار كقوله : —

إن المحب عن العزال فى صمم

فإن أمارتى بالسوء مااتعظت

أن السم فى الدسم

أنه بشر ، وأنه خير خلق الله كلهم ... إلخ .

وكالتأكيد بالنون فى قوله : « لاتعجبن » بالبيت الخامس .

وكم فى البيت العاشر : « كم حسنت » تفيد الكثرة والمبالغة .

وللبوصيرى شطرات بل وأبيات تجرى مجرى الأمثال كقوله :

إن المحب عن العزال فى صمم

إن الطعام يقوى شهوة النهم

وكقوله :

والنفس كالطفل إن تهمله شب على
حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم

وهذا البيت يمثل نظرة عميقة فى سياسة النفس .

ومن الحكم الخالدة التى قرأناها فى البردة قوله :

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد
وينكر الفم طعم الماء من سقم

وليس من تأكيد المعنى قوله فى البيت الأول : « جرى من مقلة » فإن أحداً لايشك فى أن الدمع يجرى من العين ، على عكس كلمة « ليلا » فى البيت السابع والعشرين فإنها للتأكيد استئناساً بقول الله تبارك وتعالى « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى »(١) .

والاستفهام فى البيت الأول لتقرير المعنى وتأكيده وتحقيقه فى نفس القارىء أو السامع .

---

(١) سورة الإسراء آية ١

والاستفهام فى البيتين الثالث والسادس عشر للنفى

ونداء اللائمين فى البيت الرابع يكشف عن حسرته وتوجعه فى الحب والصبابة .

والنهى فى البيتين الثامن والخامس والعشرين للنصح والإرشاد .

وذكر المسند إليه فى البيت الثانى عشر لإطالة الكلام وبسطه تلذذاً وارتياحاً .

والبوصيرى لم يكن مدفوعا إلى المحسنات بقدر ما كان مهتما بإبراز المعانى ، وحسن عرضها ، ودقة صياغتها .

ومن المحسنات القليلة التى جاءت عفواً وبلا تكلف :

الطباق فى البيت الرابع عشر بين القرب والبعد ، وذلك لإشعار أن الرسول منطلق اللسان ، فى كلتا الحالتين .

والطباق فى البيت العشرين بين « محدثة وقديمة » لبيان أن آيات القرآن الكريم محدثة النزول قديمة قدم الرحمن الرحيم .

والشاعر يزاوج أحياناً بين الفقرات كقوله : بالحسن مشتمل بالبشر متسم .

وكقوله : قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد
ويـنـكـر الفم طعـــم المـاء من سقم

وكقوله :

كالزهر فى ترف والبدر فى شرف
والبحر فى كرم والدهر فى هِمَمِ

ومع المزواجة نرى سجعاً بين الفقرتين الأولى والثانية وسجعاً آخر بين الفقرتين الثالثة والرابعة .

وهـــذه المزاوجة تجعل للبيت نغما موسيقيا إلى جانب حرف الميم الشفوى الذى تنتهى به الأبيات فيضفى عليها هدوءا وسكونا واتزانا .

٧ — الصور الخيالية

قامت العاطفة الدينية الصادقة ، بدور كبير فى قوة وجودة المعانى وجمال التشبيهات وحسن الصياغة ، ولقد كان البوصيرى بروحه المتصوفة متشوقا للرسول ﷺ ولأنه كمعظم المتصوفين يرى أن النبى ﷺ حى فى قبره لذا اجتهد بقدر ما وسعه الاجتهاد فى الفوز بإعجاب الرسول ، كما أن محاولته محاكاة حسان بن ثابت وكعب بن زهير وغيرهما ممن مدحوا الرسول كانت حافزاً ودافعا له على الإجادة وحسن الأداء ، ونستعرض هنا أهم الصور الخيالية فى الأبيات التى اخترناها .

« البيت السابع » قوله : أمارتى بالسوء كناية عن النفس ، وصور فى البيت نفسه الشيب والهرم بشىء مرعب له نذير .

« البيت الثامن » جعل الشهوة شيئاً يكسر ، وذلك لإبراز الشهوة وتجسيمها .

« البيت التاسع » شبه النفس بالطفل تشبيهاً يكشف عن خبرته فى الحياة ، حيث جعل النفس كالطفل فى الفساد عند الإهمال والإعتدال بالرعاية والعناية والمتابعة .

« البيت الحادى عشر » قوله : من أحيا الظلام كناية عن الرسول ، وقوله : « اشتكت قدماه الضر » استعارة مكنية لتشخيص الأقدام ، وجعلها إنسانا يشتكى ويتألم .

« البيت الخامس عشر » شبه الرسول بالشمس بجامع اختلاف الصورة بين البعد والقرب .

« البيت التاسع عشر » فى هذا البيت أربعة تشبيهات دفعة واحدة ، فقد شبه الرسول بالزهر وبالبدر وبالبحر وبالدهر .

« البيت الرابع والعشرون » شبه آيات القرآن وهى ترد ببلاغها على من يعارضها بالغيور الذى يرد عن محارمه المعتدى الجانى .

« البيت السابع والعشرون » شبه الرسول وهو يسرى من حرم إلى حرم بالبدر الذى يسرى بين الظلمات الحالكة .

والشاعر لم يحرص على الاهتمام بمقومات الفن الشعرى من صور وأخيلة بقـــدر حرصه على جودة المعانى وتسلسل الأفكار ، وحسن العرض، وقوة العاطفة وصدقها ، مما جعل البردة إحدى روائع الأدب العربى .

— ٨ —

لقد ترجمت هذه القصيدة إلى بعض اللغات الشرقية والغربية ، وأقبل عليها الشعراء تشطيراً وتخميساً ومعارضة وشرحاً وتعليقاً، إلى غير ذلك من مظاهر الاهتمام .

وكان للصوفيين الشاذليين الذين ينتمى إليهم البوصيرى دور هام فى هذا الذيوع والانتشار، حتى صار الناس يتدارسونها فى البيوت والمساجد كالقرآن والحديث ، وكانوا يرددونها فى المناسبات الإسلامية وكانوا ينظرون إلى قول البوصيرى :

مولاى صل وسلم دائمـــاً أبداً
على حبيبك خير خلق الله كلهم

نظرة خاصة ، فكانوا يكررونه عقب كل بيت من أبيات القصيدة جميعها .

ولقد طعن أحمد بن تيمية فى البردة وتابعه فى ذلك محمد بن عبد الوهاب وتلاميذه فى نجد، وكانت طعونهم جميعاً حول ما اشتملت عليه من شرك أكبر فى دعواهم ، وذلك لأن البوصيرى نعت الرسول بخصائص الألوهية التى قصرها الله على نفسه كقوله :

يا أكرم الرّسل مالى من ألوذ به
سواك عند حلول الحادث العَمم[1]

حيث جعل الاستعانة والاستغاثة بغير الله .

ولقد قال الله سبحانه وتعالى : « إياك نعبد وإياك نستعين » وقال الرسول فيما يروية ابن عباس رضى الله عنهما « .. إذا سألت فأسأل الله.. الحديث » .

ولقد دافع عن البوصيرى من دافع مستشهدا بما جاء فى البردة .

دع ما أدعته النصارى فى نبيهم
وأحكم بما شئت مدحا فيه واحتكم

وهو يطابق قول النبى ﷺ : « لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم » .

ورأى ابن تيمية أن قول البوصيرى :

ولن يضيق رسولَ الله جاهُك بى
إذا الكريم تحلى باسم منتقم[2]

هو غاية الإطراء الذى وقعت فيه النصارى وأمثالهم .

---

(١) الحادث العمم : يوم القيامة ، لأن هوله يعم الخلق ،
(٢) تحلى : اتصف : والمنتقم : من أسماء الله .

وقال : « وبهذا يعلم أن الناظم قد زلت قدمه اللهم إلا أن يكون قد تاب وأناب قبل الوفاة والله أعلم »[١] .

وقال : « ولا ينفع البوصيرى تصوفه وورعه ، لأن الشرك يحبط الأعمال ، «ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون »[٢].

وطالب بالانصراف عن البردة ومثيلاتها إلى قصائد الصحابة التى ليس فيها إلا الحق والصدق .

والحقيقة أن البوصيرى قد بالغ فى وصف الرسول ، وكان مدفوعا إلى ذلك بصدق فى العاطفة وسلامة فى القصد والنية ، ولا نتابع ابن تيمية فى وصفه للبوصيرى وفى وصف ما قاله بأنه شرك يستحق التوبة ، ونعتقد أن ما ذكره فى البردة دون ذلك بكثير والمسألة شعريا مسألة مبالغات غير مقبولة ، ولهذا بقيت هذه القصيدة مقدسة ومتداولة على ألسنة الناس.

---

(١) مجموعة التوحيد ص ٣٣٠ طبع دار التراث العربى عام ١٩٨٠ م

(٢) المرجع السابق ص ٣٥٠

فهرس الكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب
٩٦٥٥ / ١٩٩٠ م
I.S.B.N : 977 - 00 - 1015 - 4